المغتالون من ملوك العرب

1

الوليد بن يزيد

الخليفة الشاعر

(١٢٦ هـ)

تأليف
أكرم حسن العلبي

دار المأمون للتراث

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 23 / ذو القعدة / 1445 هـ
المـوافـق 31 / 05 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي

م. سرمد حاتم شكر

الوليد بن يزيد

الخليفة الشاعر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

المغتالون من ملوك العرب

(١)

الوليد بن يزيد

الخليفة الشاعر

(١٢٦هـ)

تأليف

أكرم حسن العلبي

«إن قدر الله يجري بمقاديره فيما أحبَّ الناسُ أو كرهوا، لا تأخير لعاجله، ولا تعجيل لآجله»

«الوليد بن يزيد»

دار المأمون للتراث
دمشق - ص.ب : ٤٩٧١
بيروت - ص.ب : ١٣٥٣٧٨

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

جميع الحقوق محفوظة
لدار المأمون للتراث

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة

إن من يطالِع كتب التاريخ، يجد أن عدداً غير قليل من أعلام الإسلام، ملوكاً وأمراء ووزراء، قد انتهت حياتهم بالموت غدراً، على الرغم مما قاموا به من جلائل الأعمال.

ليس هذا فحسب، بل إن الأمر اللافت للنظر، أن سيرة بعضهم قد لحقها التشويهُ والتحريف، مما يدفع الإنسان العجول إلى التعاطف مع القتلة أنفسهم، وتصديق ما رُمي به الأعلام المغتالون من أخبار وأساطير. . .

من أجل ذلك، رأيت من الواجب عليَّ تقديم صورة واضحة وحقيقية لعدد من ملوك العرب المغتالين، ولا سيما أولئك الذين تركوا آثاراً هامة في التاريخ العربي الإسلامي، بأسلوب يجمع بين الثقافة التاريخية، والدراسة العلمية، وقدّمتُ لكل واحد من هؤلاء الأعلام بذكر العصر الذي وجد فيه، وبما قام به من أعمال، مع

التعريف بصفاته ومزاياه وميوله وأفكاره، وبعد ذلك تناولت بالبحث الأسباب التي أدت إلى اغتياله، بعيداً عن التفصيلات التي قد تشتت أفكار القارىء اليوم، مع الإشارة إلى المصادر لمن أراد التوسع في حادثة، أو التثبت منها.

وقد يسأل سائل: ما الفائدة التي ستعود على العربيّ اليوم، من معرفة ما إذا قتل هذا الملك ظلماً، أو اغتيل هذا الأمير غدراً؟ وما الفائدة ـ أصلاً ـ من الحديث عن أمور مضت وانقضت منذ مئات السنين؟

ونجيب عن هذا السؤال المعقول، بالقَوْل:

أولاً ـ إن في حوادث التاريخ عبراً للناس، لأنها تقدم لهم تجارب الذين سبقوهم، والذي يقرأ التاريخ، كمن يصعد في السّماء، فيرى الأرض والكواكب والكون كله على حقيقته بعدما كان لا يرى إلّا بيته أو قريته، فالحديث عن التاريخ والحالة هذه، يمكن أن يدخل في باب الأدب الذي يهذب النفوس، ويسمو بها بعيداً عن ضيق المكان والزمان، ومشكلات الأيام.

ثانياً ـ إن من نقدم لهم هذه الدراسة اليوم، إنَّما كان لهم فضل كبير على العرب والمسلمين، ومع ذلك، فإنَّ عدداً كبيراً منهم يكاد يكون مجهولاً من غالبية الناس.

ثالثاً ـ ولعلّ من أهم الأسباب التي دفعت بنا إلى هذا العمل، ما لمسناه من أثر القادة الخطير في شعوبهم وأوطانهم.

وعلى الرغم مما أثير حول هـذه المقالـة، فإن حوادث التاريخ تؤكد صحتها، ومن أمثلة ذلك، معاوية ابن أبي سفيان، فإنّ وجود ذلك الرجل أدى إلى تغيير مسار التاريخ العربي الإسلامي، وقيام الدولة الأمـويّة والحكم الملكي الـوراثي، وما إلى ذلـك مما يعـرفه الجميع، ولو افترضنا جدلاً، أن الخوارج نجحوا في اغتياله، وفشلوا في اغتيال عليّ رضى الله عنه، فهل كان التاريخ العربي الإسلامي، سيتخذ المسار الذي اتخذه؟ بالطبع لا.

ولذلك فإن قتل بعض الملوك كان يؤدي في أحيانٍ كثيرةٍ إلىٍ نتائج هامة وخطيرة وحاسمةٍ في التاريخ، من ذلك مثلاً أنّ السّلطان الأشرف خليل بن قلاوون، لما فتح عكا وحرر بلاد الشام من الصليبيين، التفت إلى تحرير المشـرق الإسلامي من المغـول، وأعدّ العـدة لمهاجمة بغداد، كما سنرى، لكنّه اغتيل فجأةً، فقامت الفتن في دولة المماليك في مصر والشام، الأمر الذي أدى فيما بعد، إلى دخول المغول، عاصمة الأمويين دمشق.

والأمثلة على ذلك كثيرة. . .

من أجل ذلك، رأينا من الضروري أن نقدّم سيرة ملوك العرب المغتالين، لندرك الجانب المجهول من تاريخنا، ذلك الجانب الذي أُتينا منه ونحن لا ندري. . .

ولقد حاولت في هذه الدراسة الاعتماد على المصادر الأصيلة، واستبعاد المصادر المعاصرة إلا فيما لا بدَّ منه وعمدت إلى نقدها، ومقارنة الروايات في محاولة مضنيةٍ لتمييز الخبيث من الطيب والوصول إلى أقرب الروايات إلى الصحة، وذلك وسط الكميات الكبيرة من الأخبار الملفقة والموضوعة.

إن مصادرنا العربية في معظمها، تضع الغث والسمين معاً، وينقل المؤرخون ذلك من جيل إلى جيل، فتنتشر الأكاذيب مع الحقائق، ويتناقلها الناس كما هي.

لقد كُتب التاريخ العربيّ الإسلامي، بعد وقت طويل من حدوثه، والأيدي التي كتبتهُ لم تكن في جميع الأحوال، فوق مستوى الشبهات، وإذا وجد من كذب على رسول الله ﷺ، ونسب إليه مئات الآلاف من الأحاديث الموضوعة، فمن الطبيعي أن يوجد من يكذب على غيره، ولا سيما مع انتشار الفتن والأهواء. . .

وعلى ذلك، فإنَّني لم أثبت إلّا ما غلب على الظن أنه

صحيح، وأشرت في الوقت نفسه إلى ما لم يصحّ من الأخبار، وذلك من أجل تقديم صورة حقيقية عن ملوك العرب المغتالين، الذين لم يجدوا من يدافع عنهم ويبين حقيقة ما جرى لهم على وجه الحق والصدق، بعيداً عن الهوى...

ومن الذين اخترناهم في هذه السلسلة: الخليفة الأموي الوليد بن يزيد، والخليفة العباسي جعفر المتوكّل، والملك المعظم توران شاه آخر ملوك الأيوبيين وبطل معركة المنصورة، والملك المظفر قطز بطل عين جالوت، والملك الأشرف خليل، فاتح عكا ومحرر بلاد الشام من الصليبيين، وغيرهم من الملوك.

ولن نذكر شيئاً عن سادة الشهداء عمر وعثمان وعلي والحسين لأن سيرتهم أعظم من أن نحيط بها في هذا الكتيّب، عدا عن أنهم قد نالوا قسطاً وافراً من الدراسة والبحث.

ونحن إذ نقدم للقارىء العربي قصص ملوك العرب المغتالين، نأمل أن نكون وفقنا في الاختيار والعرض، فإن أصبنا، فمن الله، وإن أخطأنا فمن عندنا، وفوق كل ذي علم عليم.

أكرم حسن العلبي

دمشق، رجب ١٤٠٧ هـ

الوليد بن يزيد

أولاً ـ عصر الوليد بن يزيد والدولة الأموية:

قامت الدولة الأموية في دمشق سنة ٤١ هـ = سنة ٦٦١ م، بعدما تنازل الحسن بن عليّ، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، عن حقّه في الخلافة، حقناً للدماء، وسمي ذلك العام عام الجماعة، وقد بايع معاوية عدد كبير من أهل الحل والعقد، واستطاع بحلمه ودهائه وعزمه، أن يثبت أركان الدولة العربية الإسلامية، وأن ينطلق بالعرب المسلمين في رحلة الجهاد الطويلة التي كانت توقفت لبعض الوقت. . .

وشهد عهد معاوية استقراراً شاملاً في جميع أنحاء الدولة الإسلامية.

وعندما تقدمت به السنّ، ورأىٰ كثرة المتربصين به، والطامعين في الحكم من بعده، رأى أن يعهد لابنه يزيد ليكون الخليفة من بعده، وأخذ له البيعة من الأمصار، باللين تارةً وبالشدة تارةً أخرى، وهكذا أرسى معاوية قواعد الحكم الملكي الوراثي لأول مرة في الإسلام.

وعلى الرغم من الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى معاوية وإلى نظامه الجديد، فقد سارت عليه جميع الدول الإسلامية الملكية حتى اليوم، ذلك لأنه على علاّته يجنب البلاد الفوضى والحروب الأهلية التي يمكن أن تنتشر بين الفئات المتصارعة على الحكم.

وعندما انتقل الحكم إلى مروان بن الحكم، أحدث تغييراً جديداً على نظام الوراثة، كان له أثر سيىء على الدولة الإسلامية طوال عهودها، وهذا التغيير كان في تعيين أكثر من ولي للعهد، فقد عهد بالأمر من بعده لولده عبد الملك ومن بعده لولده عبد العزيز، وكأنه كان يعلم من منهما سيموت قبل صاحبه.

وقد نسي مروان، وهو يرسي قواعد هذه السنة السيئة، مبدأ هاماً في الحياة، وهو أن الابن أحبّ إلى أبيه من الأخ، ولذلك حاول عبد الملك تنحية أخيه عبد العزيز، وتولية ابنه الوليد، فكتب إليه عبد العزيز من مصر:

«يا أمير المؤمنين، إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحدٌ من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإني لا أدري ولا تدري، أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت ألا تغثث علي بقية عمري، فافعل...».

فرقّ له عبد الملك وتركه، ومات عبد العزيز قبل أخيه عبد الملك، فعهد إلى ولديه الوليد بن عبد الملك وسُليمان، فوقع بذلك في الخطأ الكبير الذي وقع فيه أبوه من قبل، إذ حاول الوليد بدوره تنحية أخيه سُليمان، ومبايعة ابنه عبد العزيز، لكنّه مات قبل إتمام ما همّ به، وحكم سُليمان فانتقم ممن أشار بعزله أيما انتقام، وأقصى عن الدولة كبار قادتها من أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبةُ بن مسلم الباهليّ، وغيرهم. . .

وعندما وصل الحكم إلى يزيد بن عبد الملك بعهدٍ من أخيه سُليمان، عهد بالأمر من بعده إلى أخيه هشامٍ، ومن ورائه ابنه الوليد بن يزيد، الذي كان غلاماً حدثاً، وأخذ على هشام العهود والمواثيق. . . ثم مات يزيد، وحكم هشام، وحاول فعل الشيء نفسه، لقد حاول إقصاء الوليد، ومبايعة ابنه مسلمة بن هشام، لكنه كان متردداً خائفاً. وعلى الرغم من أنه لم يعزل الوليد، إلاّ أنه لم يشركه في شؤون الحكم، وتركه هائماً على وجهه بين دمشق وعمّان والأزرق وتدمر، مشجعاً الناس على ذكر مثالبه والحطّ من قدره.

وحكم الوليد، وعهد لولديه: الحكم وعثمان ولكنّ الوليد قُتل، وقتل ولداه، وقام يزيد بن الوليد وأخوه

إبراهيم، ثم جاء مروان بن محمد، وسقطت الدولة الأموية. . .

ولم يتعظ العباسيون بذلك بل صار الخليفة يعهد إلى اثنين وثلاثة من أولاده، وكأنَّه ضمن أعمارهم، وعرف آجالهم، ونجم عن ذلك كلِّه فتن وشرور وحروب، ملأت كتب التاريخ، فكانت بدعة مروان بن الحكم، أكثر خطراً على الدولة الإسلامية من بدعة معاوية. . .

هذه المقدمة ضرورية لفهم الظروف التي أحاطت بالوليد بن يزيد وعاصرته وأثرت فيه، فمن هو الوليد؟

هو أول الملوك المغتالين، وأول ملك تثار من حوله الأقاويل، وتنسج الروايات، وتُنظم الأشعار.

لقد كتب الكثير عن الوليد، وما كل ما كتب صحيح، وما كل ما كتب كذب، لقد اختلط الحق بالباطل والصدق بالكذب والحقيقة بالخيال، مما جعل تناول سيرته بالبحث العلمي المجرد، أمراً فيه من الصعوبة الشيء الكثير. . .

والذي يعنينا من ذلك كلّه، أننا نريد معرفة الوليد الإنسان والخليفة، لا الوليد الشاعر، الوليد الذي قال، لا الوليد الذي قيل عنه، نريد معرفة عصر الوليد بمفاهيمه

وقيمه وبداوته وصفائه وصراحته وشجاعته، لأن الوليد الذي يعرِفه الناس، لا يمكن أن يوجد في مجتمع مثل مجتمع الوليد، بل لا بد له من مجتمع يشبه مجتمع كسرىٰ وقيصر ونيرون، ولو أدرك المؤرخون هذه الحقيقة، لوفّروا على أنفسهم عناءً كبيراً ووزراً أكبر. .

لقد اندفع المؤرخون وراء عاطفتهم الدينية، فحشدوا أكبر كمية من الاتهامات ضدَّ الوليد، ليخرجوه بذلك من حظيرة الإسلام، أو ليشوهوا الدولة التي يحكمها، لقد نسِي المؤرخون فتوحاته، وتذكروا خمرياته، وهذا ليس عدلاً . . .

لقد دونوا بأيديهم عناصر الاتهام، ثم عادوا ودونوا أدلة البراءة، دون أن يفطنوا إلى إزالة التناقض بينهما.

والأمر الآخر: أن عدداً من المؤرخين شغلتهم عبقرية الوليد الشعرية عن البحث في صحة ما نسب إليه، فأثنوا على شاعريته، ونسوا أن يدققوا في الشعر الكثير المنسوب إليه، فأساؤوا إليه من حيث لا يعلمون.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الوصول إلى أقرب صورة للحقيقة عن الوليد، أمر ممكن، ما دمنا قد استبعدنا الأحكام المسبقة، سواء كانت له أم عليه.

فمن الوليد؟

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الخليفة الأموي الحادي عشر.

أمّه «أم الحجاج» بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، وهي بنت أخي الحجاج، وإلى ذلك يشير الشاعر «أبو نخيلة»:

بين أبي العاصي وبين الحجّاجْ يا لكما نورا سراجٍ وهّاجْ
عليه بعد عمّه عُقد التاجْ

وأم أبيه يزيد، عاتكة بنت الخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وأمّها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم، ولذلك قال الوليد:

نبيُّ الهُدىٰ خالي ومن يكُ خالُهُ
نبيُّ الهدىٰ يقهرْ به منْ يفاخرُ

وكنيته أبو العباس، وقد اختلف في سنة ولادته، فقيل ولد سنة ٨٠ هـ، وقيل بل سنة ٩٠ هـ، وقيل بل سنة ٩٢ هـ، والرأي الأوسط، هو الذي عليه معظم المؤرخين، لأن أباه يزيد الذي تولى سنة ١٠١ هـ، لم

يعهد له بالحكم لصغر سنّه، ومن هنا نستبعد أن يكون ولد سنة ٨٠ هـ، وسبب آخر، وهو أن أباه يزيد، ولد سنة ٧١ هـ، ولا يعقل أن يتزوج وينجب وهو في التاسعة من عمره . . .

وكان للوليد أربعة عشر ولداً ذكراً هم:

عثمان والحكم ويزيد والعباس وفهد ولؤي والعاصي وموسى وقصيّ وواسط وذؤابة وفتح والوليد وسعيد، بالإضافة إلى جاريتين أولاهما «أم الحجاج» تزوجها محمد بن يزيد بن الوليد بن عبد الملك، والأخرى «أمةُ الله» تزوجها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. وقد وصف بأنّه كان أبيض اللون، مشرباً بحمرةٍ، ربعةً، جميلاً قد وخطه الشيب، وكان من أشعر الناس وأشدهم وأقرئهم[1].

ثانياً ـ بين الوليد وهشام:

إن التعرض لسيرة الوليد مع عمِّه هشام بن عبد الملك، يساعد على رسم الصورة الحقيقية لكل منهما،

(١) انظر: الأغاني، أول الجزء السابع، والطبري ٢٠٩/٧، وبلغة الظرفاء لعليّ الروحي، القاهرة سنة ١٩٠٩ هـ، ص ٢٧، وتاريخ اليعقوبي بيروت ١٩٦٠، ٣٣٤/٢، ومآثر الإنافة للقلقشندي ١٥٦/١ والأعلام.

وليس قصدنا هنا، تقديم جميع الحوادث بينهما، لأنَّها مبسوطة بإسهاب في كتب التاريخ، وإنما الاكتفاء بعرض نماذج مختلفة تعين على التعرف على شخصية الوليد، ونظرته إلى عمه هشام، وموقف عمه منه.

لقد كان تأثير هشام في الوليد عميقاً وحاسماً، فلقد توفي أبوه يزيد، وكان هو في الخامسة عشرة من عمره، أي أنّه كان يستطيع تولي مقاليد الحكم مباشرة، وبدون دخول هشام، ولكن يزيد كان قد أوصى لابنه بعد هشام، نزولاً عند نصيحة أخيه مسلمة بن عبد الملك، ولذلك كان يزيد يقول وهو ينظر إلى ابنه وقد بلغ مبلغ الرجال: «الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك»[1].

وطالت مدة هشام في الحكم حتى قاربت العشرين عاماً، كان فيها الوليد بعيداً عن شؤون الحكم، يعد الليالي، وهي تمضي من عمره بدون طائل، وهو يتوقع في كل يوم، أن يأتيه أمر أو مصيبةٌ من هشام، فعاش سنوات عمره في ضجر وقلق وهمّ...

ومما زاد الهوة بين الوليد وعمه، تباين الأهواء، واختلاف الميول، وتناقض الأساليب.

---

(١) الأغاني ٧/٦، والكامل لابن الأثير ٥/٩١.

لقد كان هشام رجلاً جاداً وعملياً وملتزماً، وكأنّه خلق ليكون خليفةً، لذلك أعطى الخلافة والحكم والدواوين معظم وقته، ولم يكن يأبه كثيراً بالشعـراء والمطربين والمادحين، كما كان شديد المقت لكل أنواع العبث واللهو والغناء والحياة المترفة، وربما كان للحَوَل البيّن الذي يعاني منه أثر على طبعه وجديته، ولم يكن يعيب على الوليد لهوه وعبثه فحسب، بل كان ينكر على أولاده أنفسهم هذه الأمور.

فقد حدث أن ركب ابنه معاوية ـ والد عبد الرحمن الداخل ـ فرسه وركض وراء ثعلب، فعثر به فرسه فسقط، فحمل إلى أبيه ميتاً، فلم يتأثر، ولم يجزع. بل قال بكل بساطة: «تـالله لقد أجمعتُ أن أرشحه للخلافة، ويتّبعُ ثعلباً!!»[1].

وعندما كثر عبث الوليد قال له هشام:

«ويحك يا وليد، والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا!».

فكتب إليه الوليد:

يا أيها السَّائلُ عن ديننـا نحنُ على دين أبي شاكر
نَشْـربُها صِـرفاً ومَمـزوجةً بـالسُّخْنِ أحيانـاً وبالفـاترِ

---

(١) الطبري ٧/٢٠٧.

فغضب هشام على ابنه مسلمة ـ وكان يكنى أبا شاكر ـ وقال له: يعيِّرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة؟ فالزم الأدب واحضر الجماعة[1].

وكتب إليه ابنه سُليمان بأن بغلته قد عجزت عنه وطلب منه دابة أخرىٰ، فكتب إليه:

«قد فهم أمير المؤمنين كتابك، وما ذكرت من ضعف دابتك، وقد ظن أمير المؤمنين، أن ذلك من قلة تعهدك لعلفها، فتعهّد دابتك في القيام عليها بنفسك»[2].

وأخباره من هذا النوع كثيرة.

هذا الخليفة الجادّ الصارم، والقابض على زمام الأمور بحزم. لم يترك مجالاً لابن أخيه الشاب، الذي كان يصغره بحوالي عشرين عاماً، في أن يمارس بعض الصلاحيات، أو يشركه في مسؤوليات الحكم وأعبائه، لذلك لم يكن أمام الأمير الشاب إلا أن يمشي في الطريق الآخر، طريق اللهو والمرح والصيد والقنص والغناء والخمرة.

وقد زعم قوم أن الذي حمله على ذلك مؤدبه عبد

---

(١) الكامل ٥/٢٦٥، والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣.

(٢) الطبري، ٧/٢٠٤

الصمد بن عبد الأعلى الشيباني وندماؤه الآخرون...

وشعر الوليد، بعد فترة هدوء قصيرةٍ، باطراح عمّه له، وكثرة عبثه به وبأصحابه، من ذلك أنه دخل مجلس هشام في أحد الأيام، وقد كان في ذكره قبل أن يدخل، فحمّقه من حضر من بني أمية، فلما جلس قال له العباس بن الوليد وعمر بن الوليد، كيف حبك يا وليد للروميّات، فإن أباك كان بهنّ مشغوفاً. ؟! قال: إني لأُحِبُّهُنَّ، وكيف لا أحِبُّهُنَّ ولن تزال الواحدة منهن قد جاءت بالهجين مثلك... وأقبل هشام على الوليد فقال له: ما شرابك؟ قال شرابك يا أمير المؤمنين، وقام مغضباً فخرج، فقال هشام: أهذا الذي تزعمون أنه أحمق[1]؟.

فلما رأى الوليد ذلك، خرج ومعه ناسٌ من خاصته ومواليه، فنزل بالأزرق على ماء يُقال له الأغدف، وخلّف كاتبه عياض بن مسلم بالرصافة، عاصمة هشام، وقال له: اكتب إليّ بما يحدث قبلكم، وأخرج معه مؤدبه عبد الصمد، وأنشده الشاعر:

لعلّ الوليدَ دنا ملكُهُ
فأمسىٰ إليْهِ قَد استجمعَا

(١) الأغاني، ٧/٥.

وكنّا نؤمّل في مُلكِه
كتأميلِ ذي الجدْبِ أن يُمرعَا

وبلغ الشعر هشاماً، فقطع عن الوليد ما كان يجريه عليه، وكتب إلى الوليد:

«بلغني أنك اتخذت عبد الصمد خدناً ومحدّثاً ونديماً، وقد حقق ذلك عندي ما بلغني عنك، ولم أبرئك من سوء، فأَخْرِجْ عبد الصّمدِ مذمُوماً مدحوراً، فأخرجه وقال فيه:

لقد قذفوا أبا وهبٍ بأمرٍ
كبيرٍ بلْ يزيدُ على الكبيرِ
فأَشْهدُ أنّهمْ كذبوا عليهِ
شهادة عالمٍ بهمُ خبيرِ(١)

واعتذر الوليد من عمه، وسأله أن يأذن لابن سهيل في الخروج إليه، وكان من خاصته ـ فضرب هشام ابن سُهيلٍ وسيّره، وأخذ عياض بن مسلم، وبلغه أنه يكتب بالأخبار إلى الوليد، فضربه ضرباً مبرّحاً، وسجَنَهُ، فبلغ الوليد فقال:

«مَن يثق بالناس، ومن يصطنع المعروف! هذا

---

(١) الطبري، ٢١١/٧.

الأحول المشؤوم، قدمه أبي على أهل بيته، فصيَّره ولي عهده، ثم يصنع بي ما ترون، لا يعلم أن لي من أحدٍ هوى إلا عبث به. يضارّني بذلك، اللهمّ أجرني منه» ثم قال:

أَتَشْمَخـون ومنّا رأْسُ نعمتكمْ
ستَعْلَمونَ إذا كانت لنـا دُولا
اُنْظرْ فإنْ كنت لم تقدر على مثلٍ
له سوى الكَلبِ فاضربْهُ له مثلا
بينَـا يُسمّنـهُ للصّيـد صَـاحبُـه
حتى إذا ما قوي مِن بعدمَا هَزُلا
عَدَا عليه فلمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُـهُ
، ولو أُطَاقَ لَـهُ أكْلًا، لقد أكلَا

وكتب إلى هشام: «لقد بلغني الذي أحدث أمير المؤمنين من قطع ما قطع عنّي... وقد سبب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مدته، ولا صرف شيء عن مواقعه، فقدر الله يجري بمقاديره فيما أحبّ الناس أو كرهوا، لا تأخير لعاجله، ولا تعجيل لآجله، وأمير المؤمنين أحق أمته بالنظر في ذلك والحفظ له»(١).

---

(١) المصدر السابق، ٧/٢١٢.

فردّ عليه هشام: «إنك تجول بأصحابك في سفهك، وهل زاد ابن سهيل أن كان مغنياً زفاناً[1] قد بلغ في السّفه غايته، . . . ولعمري إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتب به لغير مستنكر من سفهك وحمقك، فاربع على نفسك، وارقأ على ظَلْعك[2] فإن لله سطوات يصيبُ بذلك من يشاء. . .».

فقال الوليد:

«رأيتكَ تَبني جاهِداً في قَطيعتي
فلوكُنتَ ذَا إرْبٍ لهدّمْتَ ما تبني
كفرتَ يداً مَن مُنعم لو شَكرتها
جزاكَ بِهَا الرحمن ذو الفضلِ والمنِّ

وكتب له أيضاً:

فإنْ تَكُ قَدْ مللتَ القربَ منّي
فسوفَ تَرىٰ مجانَبتي وبُعدي
وسوف تلومُ نفسك إن بقينا
وتبلُو الناسَ والأحوالَ بعدي
فتندمُ في الذي فرَّطت فيهِ
إذا قاسَيْتَ من ذمّي وحمدي[3]

(١) زفاناً: رقاصاً.
(٢) أي كُفّ فإني عالم بمساوئك.
(٣) الأغاني، ٧/٢١، والطبري، ٧/٢١٥.

وأخيراً، طلب هشام من الوليد خلع نفسه فأبىٰ فطلب منه المبايعة لابنه مسلمة من بعده، فأبى أيضاً، فحرمه العطاء وجفاه جفاءً شديداً، ثم دعا الناس إلى خلعه، فوافقه قوم منهم الفقيه الزهري، وخالا هشام: محمد وإبراهيم ابنا هشام المخزوميّ، ويزيد وعبد العزيز ابنا الوليد بن عبد الملك وغيرهم، وعارضه في ذلك أخوه مسلمة بن عبد الملك، وابنه مسلمة بن هشام ومروان بن محمد وخالد القسريّ، ويوسف بن عمر الثقفي، والعباس بن الوليد وآخرون...[1].

ولذلك فإنه لما مات مسلمة سنة ١٢٠هـ = سنة ٧٣٨م. رثاه الوليد فقال:

فليتكَ لم تمتْ وفداك قومٌ
تُريح غبيَّهم منّا الديارُ
سقيمُ الصدر، أوشكسٌ نكيدٌ
وآخر لا يزور ولا يُزارُ[2]

وهكذا مضت العشرون عاماً من عهد هشام، في محاورات ومساجلات بينه وبين الوليد، كان من شأنها

(١) الطبري، ٢١٠/٧، والأغاني، ٦/٧ و ٢٥.

(٢) الأغاني، ٧/٧، ويعني بسقيم الصدر يزيد بن الوليد، والشكس هشام والآخر مروان بن محمّد.

ابتعاد الوليد عن الرصافة، وانغماسه في الخمر والشعر والطرب في بادية الشام.

ولو أن هشاماً كان جاداً في أن يخلفه الوليد من بعده، كما أوصى يزيد، لأشركه معه في الحكم، كما فعل عبد الملك بابنه الوليد، ولكن أنّى للعم، أن يكون مثل الأب!

لقد دفع الحرمان الوليد بعيداً، وصيَّرهُ أقرب إلى الشعراء منه إلى الخلفاء، حتى أصبح شعره وغزله يذكر الناس بعمر بن أبي ربيعة.

إن خطأ هشام بحق الوليد أنه لم يحسم معه الأمور، فلو أنه عزله وولى ابنه، ما اتخذت الأحداث بعده هذا المظهر المؤلم، ولا سالت دماء، ولا قتل خليفة، ولو أنه أبقاه وقرّبه إليه، ما اتجه إلى البادية ولا اتخذ من الخمرة والشعر والطرب سلواناً، لقد كان الوليد كالمعلّق، لقد كان حاكماً مع وقف التنفيذ، وهنا قمة المأساة.

لقد أبقى هشام على الوليد، ربّما لالتزامه بالعهد الذي قطعه على نفسه لأخيه يزيد، أو لخوفه من عواقب الأمور، أو لاكتشافه أن ابنه مسلمة على دين الوليد، أو لهذه الأسباب مجتمعةً. . .

ولو أردنا الآن أن نصدر الحكم على هشام والوليد، من خلال النماذج التي قدمناها فإننا نرىٰ أن الوليد كان الطرف المجني عليه والمضطهد والمحارب في أفكاره وآرائه ورزقه، حاربَهُ الرجل الذي يفترض أن يكون أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه.

لقد عاش الوليد كسير القلب منبوذاً لاطّراح عمه له، لقد كان في الخامسة عشرة يوم مات أبوه يزيد، وحكم عمه هشام، وكانت الفرصة مهيأة لهشام أن يحسن أدبه، ويدربه على شؤون الحكم، ولكن هشاماً لم يفعل ذلك، فساعد الوليد، عن غير قصد، في سلوك الطريق الذي سلكه، والذي سبب له الكثير من المتاعب والاتهامات والمآسي.

وقد عبّر الوليد عن حزنه وألمه تعبيراً مؤثراً عندما قال «ذهب الأحول بعمري. . .».

ومات هشام، ولكن الأحقاد لم تمت، فقد ورث أبناؤه وأنصاره الحقد على الوليد، الذي لم ينس بدوره موقف الآخرين منه في زمن عمّه، وتمت تصفيةُ الحسابات بين الطرفين، ودفع الأمويون، ومعهم أهل الشام، الثمن باهظاً عبر السنين والقرون.

ثالثاً ـ الوليدُ الخليفة :

في أحد أيام الشتاء، من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥ هـ، كانون الثاني سنة ٧٤٣ م، خرج الخليفة هشام بن عبد الملك وهو كئيب، مسترخٍ عليه ثيابه، وقد أرخى عنان دابته، فسار ساعةً ثم انتبه، فجمع ثيابه، وأخذ عنان دابته وقال لحاجبه: ادع الأبرش، فدعي وسار هشام بينه وبين الحاجب، فقال له الأبرش:

«يا أمير المؤمنين، رأيتك قد خرجت على حالٍ غمني، فقال: ويحك، كيف لا أغتمّ،-وقد زعم أهل العلم أني ميتٌ إلى ثلاثةٍ وثلاثين يوماً!».

فلما كان في الليلة التي استكمل فيها ثلاثة وثلاثين يوماً، دُعي طبيبهُ سالم أبو العلاء، وطُلب منه إحضار دواءٍ للذبحة، فحضر سالم ومعه الدواء، فتغرغر هشام به، فازداد ألمه، ثم سكن، فقال لسالم: دعني واذهب إلى بيتك ودع الدواء، فانصرف سالم، وأغمي على الخليفة ثم أفاق، فطلب شيئاً فمنع منه بأمر عياض كاتب الوليد، فقال:

«أرانا كنّا خزاناً للوليد»، ومات من ساعته، يوم الأربعاء ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ـ ٦ شباط سنة ٧٤٣ م، وهو في حدود الثالثة والخمسين من عمره، بعد حكمٍ

دام قريباً من عشرين عاماً.

ويقال إن الخدم لم يجدوا إناءً يسخنوا به الماء فاستعاروه، وأنهم لم يجدوا له كفناً، فاشتروه، وفي ذلك برأينا، مُبالغات كبيرة، ربما أُدخلت للعبرة والعظة.

ودفن هشام في عاصمة ملكه في الرصافة(1).

وهناك في الأزرق، جنوب الرصافة ببضع مئات من الكيلومترات، وفي ليلة طويلةٍ من ليالي الشتاء أرسل الوليد إلى المنذر بن عمرو كاتبه، وقال له:

«يا أبا الزبير، ما أتت علي ليلة أطول من هذه الليلة، عرضتني أمور، وحدثت نفسي فيها بأمور، وهذا الرجل - يعني هشاماً - قد أولع بي، فاركب بنا نتنفس...

وركب معه كاتبه، وسارا ميلين، ثم وقف الوليد على تل، فجعل يشكو هشاماً، إذ نظر إلى رهج قد أقبل، وسمع قعقعة البريد، فتعوّذ بالله من شر هشام وقال: إن هذا البريد قد أتى بموتٍ وحيٍ، أو بملكٍ عاجل...

(1) تاريخ ابن خلدون، ٨/٣، والطبري، ٢٠١/٧، والأغاني ١٦/٧، ومروج الذهب للمسعودي ٢٢٤/٣، وتاريخ اليعقوبي ٥٧/٣ و ٣٣١، وتاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار ٥٣٣/٢، وفيه أنّه تُوفي يوم ٣ من ربيع الآخر. والرصافة: مدينة إلى الغرب من الرقة في سورية.

وبدا رجلان على البريد، هما مولى لآل أبي سفيان ابن حرب، وجَردبة، فلما قربا ورأيا الوليد نزلا يعدوان حتى قربا، فسلما عليه بالخلافة، فوجم، وجعل جردبة يكرر عليه السّلام بالخلافة، فقال: ويحك أمات هشام؟ قال نعم، قال فممن كتابك؟ قال من مولاك سالم بن عبد الرحمن، صاحب ديوان الرسائل، فقرأ الكتاب، وانصرفا، فدعا بمولى أبي محمد السفياني، فسأله عن كاتبه عياض بن مُسلم، فقال يا أمير المؤمنين، لم يزل محبوساً حتى نزل بهشامٍ أمر الله، فلما صار في حالة لا ترجىٰ معها الحياة لمثله، أرسل عياض إلى الخزّان أن احتفظوا بما في أيديكم، وخرج عياض من السجن، فختم أبواب الخزائن، وأمر بهشامٍ، فأنزل عن فرشه...[1].

وذكر الأصفهاني رواية أخرى فقال نقلاً عن (حكم الوادي):

«كنّا عند الوليد وهو يشرب، إذ جاءنا خصيّ فشق جيبه، وعزّاه عن عمّه هشام، وهنأه بالخلافة، وفي يده قضيب وخاتم وطومار.

---

(١) الطبري، ٢١٧/٧، والأغاني، ١٥/٧، ومروج الذهب، ٢٢٤/٣.

فأمسكنا ساعةً، ونظرنا إليه بعين الخلافة، فقال غنوني:

طابَ يومي ولذّ شُربُ السُّلافهْ
إذ أتانا نَعيٌّ مَنْ بالرُّصافهْ

وأتانا البريدُ ينعى هشاماً
وأتانا بخاتم للخلافة

فاصطبحنا مِن خمر عانَةَ صِرْفاً
ولهَوْنا بِقَينَةٍ عزّافهْ[1]

وقد ذكر معظم المؤرخين الرواية الأولىٰ، وهي الأصحّ برأينا، لأن الرواية الثانية، عدا عن قلة من ذكرها ـ ربّما كانت موضوعة على لسان الوليد، ولا سيّما الشعر، وهذه إحدى الروايات الكثيرة الموضوعة. وأما الذي دعانا إلى الشك فيها، فهو أن الأصفهاني نفسه، عاد وذكر بعد صفحتين شعراً يشبه هذا الشعر، ولكنه من قافية مختلفةٍ، وهو:

طابَ ليلي فبتُّ أسْقَى المداما
إذ أتاني البريدُ ينعَى هِشامَا

وأتاني بحلةٍ وقَضيبٍ
وأتاني بخاتمٍ ثمّ قاما

---

(١) الأغاني، ١٦/٧.

فجعلت الوليّ من بعد فقدي
يفضُل الناس ناشئاً وغلامَا
ذلك ابنى، وذاك قَرْم قريشٍ
خير قَرْمٍ وخيرُهم أعماما[1]

إننا لو أمعنّا النظر في هذا الشعر لوجدنا تشابهاً بينه وبين القصيدة الأولىٰ، وهذا يعني أن كلتا القصيدتين منحولة انتحل الأولى أحد الشعراء ونسبها للوليد، فجاء شاعر آخر، وأراد أن يتفوق على الأول في نظمه، فكانت القصيدة الثانية.

وأمرٌ آخر، هذا الشعر يعلن عن تولية الوليد لابنه من بعده، فور علمه بنبأ وفاة هشام، والوليد لم يفكّر بذلك إلّا بعد شهور عدة من توليه الحكم، وهذا يبين مدى الوضع في الأخبار.

وأياً ما كانت الرواية الصحيحة، فإن الوليد أصبح خليفة يوم الخميس السابع من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ، السابع من شباط سنة ٧٤٣ م وعمره خمس وثلاثون سنة، بعد عشرين سنة مضنية من الانتظار والترقّب، وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أن الوليد تسلم مقاليد الخلافة يوم الجمعة لعشر بقين من شهر ربيع الأول وهو بدمشق، بعد

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

وفاة هشام بعشرةِ أيام، وكانت الشمس في الدلو، والقمر في السنبلةً. . . وعلى الرغم من أهمية تاريخ اليعقوبي المتوفى قبل الطبري بربعِ قرن، فإننا نستبعد أن يستغرق خبر وفاة هشـام عشرة أيام كاملة حتى يصل من الرصافة إلى دمشق، ولا سيّما أن الوليد كان يذكي العيون حول هشام، ومن جهة أخرىٰ فإن اليعقوبي حدد يوم العاشر من ربيع الأول لوفاة هشام، والله أعلم.

وقد مُدح الوليد يوم جلوسه على العرش بقصيدة منها:

ذهـب الأحـول المشُـو ... مُ فقـد أُرسِـلَ المـطرْ
ثُـمَّتَ استُخـلف الـوليـ ... ـدُ فقـد أورق الشَّجـرْ(١)

وهكذا أصبح الشّاعر خليفة، فحكم البلاد بعقليـة الخليفة الشاعر، أو الشاعر الخليفة، فلم يكن يهتم كثيراً بمتابعة دقـائق الحكم، والتعرف على شؤون العمـال والموظفين، ومعرفة عمل الـدواوين، كما كـان يفعل هشام، بل إنه أدار دفة الحكم بأسلوبه الخاصّ، الذي يشبه أسلوب أبيه يزيد، ومن شابه أباه، فما ظلم.

وهذا لا يعني إطلاقـاً، أنه أهمـل شؤون الناس، وضيَّعَهمْ كما يتوهم بعضهم، وإنما كل ما في الأمر، أن

---

(١) الأغاني، ٧/ ٢٠.

قبضته لم تكن شديدة على كل كبيرة وصغيرة، لقد رسم السياسة العامة للدولة بخطوط عريضة، ونفذ ما رسمه بكل بساطة، وقام بما يعتقد أنه مطلوب منه.

لقد كانت نظرية الوليد في الحكم تتلخّص، كما قال هو نفسه، في أن على الخليفة تأمين الرفاهية لشعبه، وبذل الأموال في المصالح العامة، وصرف العطاء لمُستحقّيهِ في أوقاته، وحماية أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم، وتسيير الجيوش للغزو والجهاد، وبعد ذلك، ليس للناس أن يحجروا على الخليفة، ويقيسوا تصرفاته على مزاجهم، ويرسموا له الطريق الذي عليه أن يسلكه.

وما دام الخليفة يقوم بواجباته، فليس لأحد أن يتحكم في حياته، لذلك فإن أول أعماله في الحكم كان زيادة العطاء عشرة عشرة، وزيادة عطاء أهل الشام خاصة عشرة، فوق العشرة، وضاعف العطاء لجميع من وفد إليه من أهل بيته، وأجرى الرواتب على المقعدين والمرضى وذوي العاهات والعميان، من أهل الشام، وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرجه لهم هشام.

وكان وهو ولي عهدٍ يُطعم من وفد إليه من الصائفة ـ جيوش الصيف ـ قافلاً، ويطعم من صدر من الحجاج

بمنزلة «المزيريب» ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم، ولم يقل في شيء سُئله لا، قط[1].

ونشر «منهاجه» في الحكم، شعراً، وأمر أن يُتلىٰ في مكة والمدينة لعامة المسلمين في موسم الحج، ومما جاء فيه:

ألا أيّها الركبُ المخبّون أبلغوا
سلامي سكان البلادِ فأَسْمِعُوا
وقولوا أتاكمْ أشْبَهُ الناس سُنّةً
بوالدهِ، فاستبْشروا وتوقعوا
سيوشك إلحاق بكم وزيادةٌ
وأعطيةٌ تأتي تباعاً فَتُشْفَعُ
محرّمكم ديوانكم، وعطاؤكم
به يَكتُب الكتاب، والكتْبُ تطبعُ
ضمنت لكم إن لم تَرُعْني منيَّتي
بأن سماء الضرّ عنكم ستقلعُ[2]

ولم يهمل الوليد أمر الجهاد، فعين أخاه الغمر بن يزيد على جيوش الصيف، كما أمر قائد البحر، الأمير الأسود المحاربي بالتوجّه إلى قبرص وتخيير سكانها بين

(١) الطبري، ٢١٧/٧، والكامل ٢٦٨/٥.

(٢) الأغاني، ٢١/٧.

الانتقال إلى بلاد الروم أو الحياة مع المسلمين في بلاد الشام، فاختار قوم منهم بلاد الشام، واختار آخرون جوار الروم، ونقلهم الأسود على سفنه[1]، ولم يبق في جزيرة قبرص أحد من أهلها، وذلك منتهى الحزم. ومن جهة أخرىٰ التفت الوليد إلى تثبيت مركزه، ومحاسبة الذين أساؤوا إليه، ومكافأة المحسنين.

فقد كتب إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك بالتوجّه إلى الرصافة، لحصر أموال هشام وولده، وبأخذ عماله وحشمه، إلا ابنه مسلمة، فإنه كتب إلى العباس ألا يعرض له، ومنعه من دخول منزله، لأنه كان يوصي أباه بالرفق بالوليد.

وقام العباس بمهمته خير قيام، فقال الوليد:

ليت هشاماً عـاشَ حتّى يرىٰ
مكيـالَـهُ الأوْفَـر قـد أُتـرعـا

كِلْنـا لهُ الصَّـاع التي كـالَهـا
ومـا ظلمنـاهُ بهـا أصبعـا

لم نـأتِ ما نـأتيهِ عن بـدعةٍ
أحلَّهُ القـرآن لي أجمعـا[2]

---

(١) الطبري، ٢٢٧/٧.

(٢) الأغاني، ١٨/٧، والطبري ١٦/٧، وبينهما اختلاف في الشعر.

وقد نسب إليه بعضهم شعراً فاحشاً، ظاهر الوضع، زعموا أنه قاله في بنات هشام وهن يبكين أباهنّ، ونحن نورده، لمعرفة مدى الوضع فيه:

إني سمعتُ بليلٍ ورا المصلّى برنّهْ
إذا بناتُ هشامٍ يندبن والدهنّهْ
يَندُبن قَرْماً جَليلاً قد كان يَعْضُدُهنّهْ
أنا المخنثُ حقّاً إنْ لم .... (١)

لقد نسي الذي وضع هذا الشعر، أنّ بنات هشام إنما هنّ بنات عمّه، فهل كان سيفجر بهنّ، وهل هذا من خلق العرب، والوليد من قلب قريش أماً وأباً...» وسوف نرى أن جميع الروايات المنافية للشرف والمروءة والشهامة العربيّة الأصيلة، مما نُسب إلى الوليد، إنما هي أخبار ملفقة، ربما وضعها أناس من غير العرب، ممن لا يقيمون وزناً للشرف وممن يستوي في نظرهم نكاح البنت ونكاح المحارم، مع نكاح النساء الأخريات...

ثم عين مساعديه في الحكم، فثبت بعض ولاة هشام، ممن لم يسيئوا إليه، وعزل الآخرين وولى مكانهم رجالاً من ثقاته.

---

(١) الأغاني، ١٧/٧، والكلمة حذفناها لبذاءتها، ويمكن معرفتها من القافية، وقد كان العرب في تلك العصور يذكرونها بدون حرج...

ومن عينهم وأطلق يدهم:

١ ـ نَصرُ بنُ سيّار، القائد الأموي الكبير، ولاه على خراسان، واستمرّ فيها حتى سقوطها بيد أبي مسلم الخراساني.

٢ ـ عَمرُو بنُ محمد بنُ القاسم الثقفي، ولاهُ على السند، وهي البلاد التي فتحها أبوه في عهد الحجاج.

٣ ـ عَبد الله بنُ العباسِ الكنديّ، ولاه على الكوفة.

٤ ـ الضحّاكُ بن مزمل، ولاه على اليمن.

٥ ـ يوسف بن محمد الثقفي، وهو خاله، ولاه على الطائف والحرمين الشريفين، بدل إبراهيم بن هشام المخزومي، خال هشام.

وثبّت يوسف بن عمر على العراق، ومروان بن محمّد على الجزيرة وأرمينيا، والقاسم بن محمد على البصرة، وحنظلة بن صفوان على أفريقية، كما عين رجالاً للشرطة والرسائل والخاتم وبيت المال، والحجابة والحرس والبريد وما إلى ذلك.

ومن هذا، يتبين أن الوليد لم يكن مهملاً لرعيته وأنه قام بواجبه نحوها، وبالتالي فإن الذي يزعم أن الوليد قد

ضيّع مصالح الناس، لا شك في أنّه متعسف وغير منصف.

ولو أننا قارنّا أعمال الوليد التي ذكرناها، بأعمال غيره من الخلفاء، لوجدناه أفضل من بعضهم، فيزيد الناقص مثلاً، الذي قتَله وحلّ محله، لم يستطع أن يسير سيرته، وأنقصَ العطاء للناس، فسمّوه الناقصَ، كما أن الناس في عهده، لم يكونوا أحسن حالاً مما كانوا عليه في أيام الوليد، وربما كان العكس هو الصحيح.

والحاكم الفاجر القويّ، أفضل للناس من الحاكم الصّالح العاجز والضعيف، لأن فجور الأول على نفسه، وقوته للناس، بينما صلاح الآخر لنفسه، وعجزه على الناس[1].

وجاءت وفود المهنئين إلى الوليد، وكانوا في غالبيتهم، ممن سئموا حكم هشام الطويل، وجديته وقسوته وسيطرته الكاملة على كل شيء، وكتب إليه مروان بن الحكم شيخ بني أمية، وأسد الجزيرة والثغور رسالة تأييد ومبايعة تنبىء بجلاء عن حقيقة الوليد، ومما

(١) أوسع فكرة عن حكومة الوليد، تجدها في تاريخ خليفة بن خياط، ص ٥٥٢، من الجزء الثاني، وانظر: تاريخ اليعقوبي ٣٣١/٢، وكتاب الوزراء والكتاب للجهشياري طبعة ١٩٠٩ بمصر، ص ٦٨، والأغاني ٢١/٧.

جاء في هذه الرسالة الهامة:

«بارك الله لأمير المؤمنين، فيما أصاره إليه من ولاية عباده. وقد حاول هشام تصغير ما عظّم الله من حق أمير المؤمنين، ورام الأمر المستصعب الذي أجابه إليه المدخولون في آرائهم وأديانهم، فوجد ما طمع فيه مستصعباً، وكان أمير المؤمنين بمكانٍ من الله حاطه فيه، فقام بما أراه الله له أهلاً، ونهض مستقلاً بما حمّل منها، مثبتةً ولايته في سابق الزبر بالأجل المسمّى، وخصّه الله بها على خلقه وهو يرى حالاتهم، فقلده طوقها ورمى إليه بأزمّة الخلافة وعصم الأمور.

فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته، وذبّ له عمّا كاده فيه الظالمون، فرفعه ووضعهم...

وقد استبشر الناس بولاية أمير المؤمنين وقالوا: لم تأتنا ولاية خليفة، كانت آمالنا فيها أعظم، ولا هي لنا أسرّ من ولاية أمير المؤمنين...

وقد أجاب الناس كلهم إلى طاعتك، فأثبهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاك، وقد انتظروك، راجين فضلك قبلهم، بالرحم الذي استرحموك، وزدهم زيادة تفضل بها من كان قبلك حتى يظهر بذلك فضلك

عليهم وعلى رعيتك. . .»[1].

ومن هذا الكتاب، تظهر الحقيقة الكاملة عن الوليد، فهو خليفة كغيره، لأن مروان بن الحكم، كان أقوى وأذكى وأشد تديناً، من أن يبايع لخليفةٍ زنديق، ولقد بقي على ولائه للوليد حتى بعد موته. . .

وبعد ذلك التفت الوليد إلى تصفية الحسابات، وتبع هواه، فقاده الهوى إلى نتائج كان بغنىً عنها. . .

وأوّل أعماله، التي لم تكن في صالحه، مبايعتُه لولديه الحكم وعثمان وحمله الناس على هذه البيعة، وقد قام ولاته في الأمصار، ولا سيما يوسف بن عمر ونصر بن سيّار، بأخذ البيعة لهما رسمياً من العراق وخراسان، ولكنهم لم يستطيعوا فعلياً، إقناع الناس بجدوى هذا العمل، حتى قال خالد القسري: كيف أبايع من لا أصلّي خلفه ولا أقبل شهادته؟

إن الوليد، لو بايع لأحد أولاد عمه الوليد أو هشام لاستطاع امتصاص النقمة، ولسحب البساط من تحت الطامعين والمتآمرين، لكنه لم يفعل، واندفع وراء عاطفة الأبوة، وقدم حبّه لولديه على مصلحة بلاده. . .

---

(١) الطبري، ٢١٧/٧.

لقد كانت مُبايعة الوليد لولديه أول شرخٍ في حكمه، وكان يمكن لهذا الشرخ أن يقاوم طويلاً، لولا أن توالت عليه ضربات قوية أدت في النهاية إلى الانهيار الكامل.

لقد قرر الوليد تصفية الخصوم، وكان بوسعه أن يفعل ذلك بهدوء وبدون ضجة، لكنه اتبع الطريق الأطول والأسوأ: طريق الانتقام والتشفي.

فقد عمد الوليد إلى عدد من كبار القادة، وأنزل بهم العذاب الأليم حتى لفظوا أنفاسهم تحت العذاب، وكان وكيله في ذلك يوسف بن عمر الثقفي، الذي أراد أن يتفوق على الحجاج، فأودى بنفسه، وبالخليفة وبالدولة كلها في المهالك.

وكان الذين وقع عليهم العذاب والانتقام هم:

أولاً - إبراهيم ومحمد، ابنا هشام المخزومي، خالا هشام بن عبد الملك.

ثانياً - آل القعقاع: الوليد وعبد الملك واثنان معهما.

ثالثاً - يحيى بن زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم.

رابعاً - خالد بن عبد الله القسريّ أمير العراقين.

فأما إبراهيم ومحمد، فكانا من أشد الناس عداوة

للوليد، ومن أشدهم تحمساً لعزله والتحريض على ذلك، ولم ينس الوليد لهما ذلك، فأرسل خاله يوسف الثقفي والياً على الحرمين الشريفين والطائف، كما ذكرنا، وطلب منه إرسال ولدي هشام، فأرسلا موثوقين بعباءتين، ووجه لهما تهمة اختلاس أموال الناس، وأمر بجلدهما، فقال محمد: إن رسول الله ﷺ نهى عن الجلد إلّا بحدّ.

فقال الوليد: أنت أول من فعل بالعرجيّ، وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان، وكان محمد قد قيّده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات، وذلك على الرغم من مرور تسعة أعوام على هجاء العرجي لمحمد(١).

ثم كبّلهما الوليد بالأصفاد، وبعث بهما إلى يوسف بن عمر الثقفي بالعراق، فعذبهما حتى ماتا، وكان قتلهما نذير شؤم للوليد، لأنهما كانا أول دمٍ أريق في عهده(٢).

---

(١) العرجي، هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، كان ينزل بموضع قرب الطائف يقال له «عرج»، وهو من أشعر بني أمية، وهو القائل:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٤٧٨.

(٢) الكامل ٥/٢٧٤، والطبري ٧/٢٢٧، وتاريخ اليعقوبي ٢/٣٣٣ والبداية والنهاية ١٠/٨، والأغاني ٧/١٦.

وأما الحادث الثاني فكان تسليم الوليد لأربعةٍ من آل القعقاع، إلى عدوهم يزيد بن عمر بن هبيرة، بعدما عاذوا بقبر أبيه يزيد بن عبد الملك، وكان بوسع الوليد أن يعفو عنهم، وتكون له اليد البيضاء، ولكنه لم يفعلَ، فعذبهم يزيد بن عمر، حتى أتى عليهم جميعاً، فاضطغن على الوليد آل القعقاع، وآل هشام، بالإضافة إلى آل الوليد بن عبد الملك.

ولو أن الأمور وقفت عند هذا الحدّ، لأمكن تداركها، ولكنها سارت إلى المدى الأقصى، وذلك بما فعله الوليد بزيد بن علي بن الحسين، وبابنه يحيىٰ.

فأما زيد فشأنُه شأن آل البيت، كان يرى نفسه وريث النبي ﷺ، ومحرر الناس من جور بني أمية. وكان آل البيت في العصر الأموي الكهف الذي يحتمي فيه المستضعفون والمظلومون، وكان يندس مع هؤلاء، ولا سيما في العصر العباسي، بعض الطامعين والحاقدين والشعوبيين، ليس هذا فحسب بل إن كل حركةٍ قامت ضد الدولة الأموية أو العباسية، كانت ترفع شعار آل البيت، كما فعل صاحب الزنج الذي دمر البصرة وسفك الدماء، وصاحب القرامطة، والعبيديون في المغرب ومصر، حتى أصبح حب آل البيت، قميص عثمان،

يرتديه المصلحون والمفْسدُون، على حد سواء...

وكان الشعراء يساهمون في إسعار نار الحرب، بين مؤيدي آل البيت ومعارضيهم، والحكام يقفون من خلف هذا الشاعر أو ذاك.

فلما مدَحَ الفرزدق زين العابدين علي بن الحسين بقصيدته المشهورة،

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأته
والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عبادِ اللهِ كلِّهم
هذا التقي النَقي الطاهر العلمُ(١)

ردّ بعض الشعراء على آل البيت بقوله:

فإن كنتمُ رهْط النبيّ وآلِهِ
فإنّ النَصارىَ رهط عيسى ابن مريمِ

ومُشكلة آل البيت، أن أنصَارهم، أو الذين يتظاهرون بأنهم كذلك، كانوا من أهل الكوفة، أصحاب السوابق الكثيرة مع علي والحسين وغيرهما من آل البيت.

ويبدو أن زيداً، لم يتعظ بما فعله أهل الكوفةِ، فاتفق

---

(١) انظر ديوان الفرزدق، بيروت ١٩٦٠. ج ٢ ص ١٧٨.

معهم سنة ١٢٢ هـ على القيام «بالثورة» في العراق، ومن ثم التحرك نحو الشام للإجهاز على بني أميَّة. . .

وقد نمي خبر زيد إلى يوسف بن عمر وكشف تنظيماته، وعجّل زيد موعد ثورته، فانفض الناس كعادتهم من حوله، وهزم زيد ومات متأثراً بجراحه، ودفن في مجرى للماء، وهنا ارتُكب الخطأ الفاحش الذي يتنافى مع الدين والشهامة، فقد نُبش قبره وصُلب بالكناسة، مع عدد من أعوانه، وأرسل برأسه إلى هشام ابن عبد الملك في دمشق.

وإذا سلمنا جدلاً، بحق الحاكم بالدفاع عن مملكته، فإننا لا نرى أي داع للتمثيل بالقتلى على النحو الجاهلي البغيض، وقد دفع الأمويون، وأولهم هشام، الثمن غالياً، عندما أخرجوا من قبورهم، وصُلّبوا، على يد العباسيين.

وعلى الرغم من أن زيداً قتل في عهد هشام، إلا أن الوليد تحمّل نتيجة قتله، يوم أمر بإحراقه، وذرّ رماده في الفرات، وهو عمل جاهلي محض كان له أسوأ الأثر على الوليد ودولته. وعلى الرغم من الموقف الإنساني الذي اتخذه الوليد من ابنه يحيىٰ بن زيد بادىء الأمر، إلا أنه خرج عن طوره، وأحرق زيداً، بسبب ثورة ابنه يحيى.

وكان يحيى متوارياً في «بلخ» فسجنهُ نصر بن سيّار من باب الاحتياط، وأعلم الوليد بذلك، فكتب إليه الوليد يأمره بإطلاق سراحه ومن معه، وأن يسيّره حيث شاء معززاً مكرماً(١).

فاستدعاه نصر، وأمره بتقوى الله، وحذّره الفتنة، وأمره بالتوجّه إلى الوليد بن يزيد بدمشق، ووصله وكساه وسيّره، فوصل إلى سرخس، ثم جاوزها إلى طوس، ثم سار إلى بيهق، وكان يثني على الوليد، ويعرّض بيوسف الثقفي عامله على العراق، ويبدي تخوفه منه، وعمّال يوسف وعيونه يرقبون تحركات يحيى ويخبرون بها الوليد ويوسف.

وفجأة التف حول يحيى سبعون من أنصاره، واستولوا على خيل التجّار، وأعلنوا الثورة، فحاربهم نصر بن سيّار إلى أن هزمهم، وقتل يحيىٰ، وقطعت رأسه وصُلب، وبقي مصلوباً حتى نهاية عصر الدولة الأمويّة، فأنزلهُ أبو مسلم الخراساني ودفنه.

وواضح أن الوليد استاء من ثورة يحيىٰ بعدما أحسن إليه، فانتقم من أبيه وحرَّقه، على النحو الذي ذكرنا، وكتب إلى يوسف بن عمر:

(١) الطبري، ٧/٢٢٨.

«إذا أتاك كتابي هذا، فانظر عِجْلَ العراقَ، فأحْرِقْهُ ثم انسفه في اليمّ نسفاً».

وقد أدت هذه الأفعال الشنيعة، التي حرّم الإسلام ارتكابها بحق الكفار أنفسهم، إلى عمليات انتقام رهيبة سوّدت صفحات كثيرة من التاريخ العربي، وطبعتها بطابع الهمجية والوحشية.

والسؤال الذي لا بدّ منه الآن، ماذا كان بوسع هشام والوليد أن يفعلا تجاه ثورة زيد وابنه يحيىٰ؟

من حيث المبدأ، لا بد لأي حاكم من الدفاع عن نفسه وعن نظامه ضد الثائرين، مهما كانت هويتهم.

فلقد ثار على الأمويين عدد كبير من الخوارج، كما ثار المختار الثقفي، وعبد الله بن الزبير ومحمد بن الأشعث، وأبناء المهلّب بن أبيٍ صفرة، وثار الشيعة وغيرهم، ولم يكن من المقبول عقلاً، أن يسلّم الأمويون الحكم لأول طالب، لأنه كان ثمة بيعة مؤكدة في أعناق المسلمين لخلفائهم، وبغض النظر عن صلاحهم أو فسادهم، فإن مفارقة الجماعة والنكث بالأيمان والمواثيق، مهما تكن الأسباب، ليس هو الطريق الأسلم لإصلاح الحاكم، ولو لم يتصدَّ الأمويون لكل هذه الثورات لانهارت الدولة وتوقفت الفتوحات وعمت الفوضى والحروب، لأن

الثائرين لم يكن يجمعهم إلّا كره بني أمية، وفيما عدا ذلك كان لكل منهم هوى وميول متباينة مع الآخر.

فالمختار الثقفي تقاتل مع عبد الله بن الزبير وقتل، وعبد الله بن الزبير نفسه، كان يرى أنه أحق بالخلافة من الحسين رضي الله عنه، وعمل على إقناعه بمغادرة المدينة إلى الكوفة، والخوارج كانوا ناقمين على الجميع، وأولاد المهلب كانوا ثائرين لأسباب قبلية وعصبية محضة، وحتى زيد بن علي، فإن أنصاره سألوه:

ما قولك في أبي بكر وعمر؟

فقال: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلّا خيراً...

قالوا: فلم تطالب إذاً بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم.

فقال لهم زيد: إن أشدّ ما أقول فيما ذكرتم، أنّا كنّا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنّة.

قالوا: فلم يظلمك هؤلاء؟ (يعني بني أمية) قال: إن هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى

كتـاب الله، وإلى السنن أن تحيـا، وإلى البـدع أن تمحا. . .

ففارقوهُ ونكثوا بيعته وقالوا: جعفر بن محمد إمامُنا، ولا نتّبع زيد بن علي، فسمّاهم زيد بالرافضة[1].

ولو افترضنا أن زيداً انتصر وأقام دولته، لكان عليه أن يحارب هؤلاء «الرافضة» ويستعد بالتالي لمحاربة شيعة بـني أميـة، والخـوارج وغيـرهم، بمعنى أن السـلام المنشـود تحت ظل آل البيت لن يتحقق.

ولـو ألقينا نـظرة على الفـرق التي انقسمت إليهـا الخوارج مثلاً، لأدركنا مباشرة، أن انتصار إحدى هذه الفرق أو كلهـا على الأمويين، يعني أن يلتفت الخوارج إلى تصفية بعضهم وبالتـالي تصفية الشيعـة والأمويين وغيـرهم، وهكذا لن تهـدأ الأمـور ولن يعم السـلام المنشود، ولذلك فإن الخروج على الحاكم ومحاربته أمرٌ منهيّ عنه شرعاً لما يسبب من الكوارث والفشل وتسلط الأعداء.

ونحن لا ندافع عن بني أمية أو العباسيين أو أي حاكم آخر، ولا نقول بالاستسلام للظلم، أو الخضوع المطلق

---

(١) الطبري، ١٨١/٧.

للحاكم مهما فعل، ولكننا نقول إن الإصلاح لا يتم بحدّ السيف، وإنما يتم بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، مع تمسك الناس بحقوقهم الشرعية، ومجابهة الحاكم الظالم بالحسنى، أما إذا بلغ ذلك الحاكم حداً من الظلم والطغيان لا مزيد عليه، فإن الناس هم الذين يتحملون مسؤولية ذلك ونتائجه، لأنه لا يمكن لأي حاكم أن يصل إلى ذلك المدى، إلّا إذا كان قد استخفّ قومه فأطاعوه.

أما أن يجتمع نفرٌ، ويقرروا تغيير الحاكم بالقوة، لأنه لا يصلح من وجهة نظرهم، فأمر خطير، يقضي على المجتمعات وينشر الفوضى.

وإذا وجد حتى اليوم، من يطعن في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وهم خلفاء رسول الله ﷺ، والمبشّرون بالجنة، ويتهمهم بعدم العدل، والمحاباة، فإنه يستحيل قطعاً أن يوجد بعدهم حاكم يرضى به الناس جميعاً، فإذا ما أرسينا مبدأ الثورة على كل حاكم، فإننا نخرج بذلك عن حدود العقل والمنطق والواقع، وإن كان ثمة ما نرفضه، فهو الإسراف في القتل، والتمثيل بالقتلى وصلبهم وإحراقهم، وإخراجهم من قبورهم، كما فعل هشام والوليد ومروان بن محمد، وعبد الله بن علي العباسي وغيرهم.

ولو تتبعنا الثورات التي قامت ضد الأمويين والعباسيين تحت ستار آل البيت، وما رافقها من سفك الدماء ونشر الخراب والدمار، وقيام الدول الانفصالية وضعف الدولة وتوقف الفتوح وسيطرة الموالي واضطهاد العرب، لأدركنا بسهولة مدى الخطر الذي ينجم عن الثورة المسلحة، ودفع الضرر مقدم على جلب المصلحة، كما يقولون في أصول الفقه.

أما قاصمة الظهر التي أطاحت بالوليد، فكانت مقتل خالد بن عبد الله القسريّ وما تبعه من نقمة القحطانية على الوليد، وقيامهم بالتحريض عليه، حتى كان لهم ما أرادوا.

وخالد القسريّ، هو أبو يزيد وأبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد البجليّ ثم القسريّ، وأمّه نصرانيّة من الروم، ابتنىٰ بها أبوه في بعض أعياد النصارىٰ، فأولدها خالداً وأسداً، وبقيت على دينها لم تُسْلم.

وقد ولاه هشام بن عبد الملك، العراقين وخراسان فأمضى فيهما خمسة عشر عاماً، كان فيها كالحجاج، مطلق التصرف، واسع الحرمة.

وقد اختلف الناس في أمره

فقد ذمّه الأصفهاني في الأغاني، واتهمه بالزندقـ

واللواط والفجور، وغمز من نسبه وأصله، وذلك لشدة ولاء خالد لهشام وبني أمية، وكرهه لآل البيت.

كما هجاه الفرزدق فقال:

وكيف يؤمُّ المسلمين وأمّه
تدين بأن الله ليسَ بواحدِ
بنى بَيْعةً فيها الصليب لأمّه
ويهدِم من كفر منار المساجدِ[1]

وكان خالد قد أمر بهدم المآذن، لأنه سمع بعضهم ينشد:

ليتني في المؤذنينِ حياتي
إنهم يُبصرونَ من في السطوحِ
فيشيرون أو تُشيرُ إليهمْ
بالهوىٰ كل ذاتِ دلٍّ مليحِ

وفي سنة ١٢٠ هـ عَزل هشام خالداً عن العراق، بعد أن تعاظم نفوذه وقوي سلطانه حتى بلغ إيراد ابنه السنوي عشرة ملايين درهم.

وسجن خالد بالحيرة ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد وابن أخيه المنذر بن أسد، ثم أُطلق

---

(١) الكامل، ٥/٢٧٩، والأغاني: أو الجزء/٢٢، وابن عساكر ٥/٦٧.

سراحه، وأقام في دمشق، وخرج بأولاده مع «الصائفة» . . . وقد ضايقه هشام ولكنه لم يؤذِهِ أو يعذبْه، ومات هشام، وجاء الوليد فاستدعاه إليه، وطلب منه إحضار ابنه يزيد، فلم يفعل، فسلّمه إلى يوسف بن عمر الثقفي الذي اشتراه بمبلغ كبير من المال، وحمله إلى العراق ذليلاً مهيناً، وبسط عليه العذاب الأليم الذي لم يسمع بمثله، وهو صامت صابر، ثم وضعت قدماه بين خشبتين وعصرتا حتى تكسرتا، ثم كُسرتْ ساقاه ثم فخذاهُ وأخيراً كسر وركه فمات، وكان ذلك في المحرم سنة ١٢٦ هـ، وكان خالد يومئذٍ في أوائل الستينات[1].

وكانت هذه الطرق الوحشية في التعذيب والقتل بدعة جديدةً على الإسلام، ولم يعرف العرب من قبل مثيلاً لها، وقد صارت سنةً سيئةً سار عليها ملوك المسلمين طوال العهد العباسي والمملوكي . . .

وقد تأثر «القحطانية» بمقتل زعيمهم على هذه الطريقة أكثر من تأثرهم لموته، ولذلك قال شاعرهم غداة مقتل الوليد بن يزيد، فيما بعد:

فإنْ تَقْطَعوا منا مَناطِ قلادةٍ
قَطَعَنا بهِ منكمْ مناط قلائدِ

(١) الطبري، ٧/٢٦٠، ووفيات الأعيان ٢/٢٢٧، واليعقوبي ٢/٣٣٣.

وإنْ سافر القسريُّ سفرةَ هالكٍ
فإنَّ أبا العباسِ ليسَ بشاهدِ

وعكف الوليد بعد تصفية خصومه، على حياته الخاصة في البادية التي كان يفضلها على قصور أجداده في دمشق، متأثراً بذلك بجدته الكبرىٰ ميسون بنت بحدل[1]، وكيف كانت حياته هناك؟

هذا ما سنعرفُه في الوليد الإنسان.

رابعاً ـ الوليد الإنسان:

لم يتعرض خليفة مسلم قط، لما تعرّض له الوليد بن يزيد من الاتهامات التي تتدرج من الطعن بمروءته إلى الطعن بدينه وإسلامه.

وكما قدمنا فإن المؤرخين، لم يهتموا كثيراً بتمحيص الروايات، لذلك سنحاول جاهدين أن ننسق هذه الروايات، وأن نوازن بينها لإثبات القويّ منها، واطراح الملفق.

لقد اتهم الوليد بشرب الخمرة، وحب الغناء، ونكاح

---

(١) زوج معاوية، وأم يزيد القائلة:
لبيت تخفق الأرياح فيه أحبّ إليّ من قصر منيف.

المحارم، واللواط، والفجور بالنساء والزندقة والكفر وتمزيق المصحف والاستخفاف بالكعبة، بالإضافة إلى تهم كثيرة نجدها في كتب التاريخ، ونخجل من إيرادها هنا، وسنورد أبرز هذه الاتهامات ثم نفندها، ونثبت الصحيح منها، وذلك لإصدار الحكم العادل على الوليد.

روى الأصفهاني عن العلاء البندار قوله:

كان الوليد زنديقاً، وكان رجلٍ من كلب يقول بمقالته، في الثَّنْيِة، فدخلت على الوليد يوماً، وذلك الكلبي عنده، وإذا بينهما سفط، فيه رأس يتحرك، فقال يا علاء: هذا «ماني» لم يبتعث الله نبياً قبله، ولا يبتعثُ نبياً بعده، فقلت: يا أمير المؤمنين ألم أقل لك اتق الله، ولا يغررك هذا الذي ترى عن دينك، فقال له الكلبي: يا أمير المؤمنين ألم أقل لك إن العلاء لا يحتمل هذا الحديث[1].

هذه هي التهمةُ الأولى، وهو أنه ما نويٌّ، وليس بمسلم أصلاً.

والثانية: ما ذكره المرتضى في أماليه، عمن أسماهم «أهل العلم» قال: قال يزيد بن الوليد، نشدتُ الله رجلاً

---

(١) الأغاني، ٧/٧٢.

سمع من الوليد إلّا أخبر به، فقام ثور بن يزيد فقال: أشهد لسمعتهُ يقول:

اسقياني وابن حربٍ واستـرانا بـإزارِ
واتركا من طلب الجـ ـنَّة يسعى في خسارِ
سأسوس الناس حتى يركبوا دين الحمارِ[1]

والتهمة الثالثة: تهمة تؤدي إلى الكفر الصريح، فقد زعموا أنه قال:

تلعَّبَ بـالخلافـةِ هـاشميٌّ
بـلا وحي أتـاهُ ولا كِتـابِ
فقْـل لله يمـنعني طعـامي
وقـل لله يـمنعني شـرابي
يُذكّرني الحساب ولست أدري
أحقّاً ما يقول من الحسابِ[2]

والتهمةُ الرابعةُ: تهمة الاستهتار بالكعبة المشرفة، فقد زعم المؤرخون أن الوليد أراد بناء بيتٍ فوق الكعبة، وزعم «المرتضى» أنه نقل عن بعض حَجَبة البيت الحرام قوله: لقد رأيتُ المجوسيّ البنّاء فوق الكعبة، وهو يقدر مواضع

(١) أمالي المرتضى، ١/١١٩، طبعة مصر ١٩٥٤ م.
(٢) انظر: أمالي المرتضى، ١/١٢٦، وشذرات الذهب ١/١٦٩، ومروج الذهب ٣/٢٢٩ و١٠٧، وفوات الوفيات ٤/٢٥٧.

أركان القبة، فلم تمضِ تلك الليلة حتى وافى الخبر بمقتل الوليد[1].

وقد ذكر آخرون، أن الوليد عندما حجّ سنة ١١٦ هـ، أو سنة ١١٩ هـ أراد أن يشرب الخمرة على ظهر الكعبة، وينصب عليها خيمةً له، فنهاهُ أصحابه، خشيةً من الحُجَّاج، فانتهى[2].

ولعل أبشع التهم وأغربها، موقف الوليد من القرآن الكريم. فقد ذكر المؤرخون أن الوليد استفتح المصحف، فقرأ الآية:

(واستفتحوا وخابَ كلُّ جبّارٍ عنيدٍ، مِنْ ورائِه جهنّمُ ويُسْقَىٰ من ماءٍ صديد).

فقال: أسَجعا سَجعاً، علِّقُوه، ثم أخذ القوسَ والنبلَ فرمَاهُ حتّى مزّقه، ثم قال:

أتـوعِـدَ كـلَّ جبـارٍ عنيـدٍ
فهـا أنـا ذاكَ جبَّـارٌ عنيـدُ

---

(١) أمالي المرتضى ١/١٢٩.

(٢) اليعقوبي، ٢/٣٣٣، والطبري ٧/٢٠٨، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/١٧٥، وابن كثير ١٠/٤، والكامل ٥/٢٦٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي /٢٥٠.

إذا ما جئت ربك يـوم حشرٍ

فقـلْ يا ربِّ مـزقني الـوليـدُ

وانفرد الأصفهاني فقـ؟ـ؟ إن الوليـد قتل بعـد ذلك بساعة[1].

ومن التهم الشنيعـة الأخرىٰ أن الـوليد خـرج من مقصورة إلى مقصورة، فإذا هو ببنت له، معها حاضنتها، فوثب عليها وافترعها، فقالت له الحاضنة: أمجوسيّة، فقال اسكتي، وأنشد:

من راقبَ النـاس مـاتَ همّـاً

وفـازَ بـالـلذةِ الـجَسورُ

وذكروا أيضاً أن الوليد واقع مرةً إحدى جواريه وهو سكران، فلما تنحىٰ عنها آذَنَهُ المؤذن بالصَّلاة، فحلف ألا يصلي بالناس غيرها، فخرجتْ متلثّمةً فصلّت بالناس وعادت... واتهم أيضاً بغشيان الذكور، ونكاح أمهات أولاد أبيه[2]،

---

(١) الأغاني، ٤٩/٧، وخزانة الأدب للبغدادي بتحقيق عبد السلام هـارون وأمـالي المـرتـضى ١٣٠/١، وتـاريـخ الـخلفـاء للسيـوطي /٢٥٣، وشذرات الـذهب ١٦٩/١، وأخبـار الـدول للقرماني ١٣٢، والعبر لابن خلدون ١٠٦/٣، وفوات الوفيات ٢٥٧/٤، ومروج الذهب ٢٢٩/٣، والكامل ٢٩٠/٥.

(٢) الأغـاني، ٦١/٧، وابن خلدون ١٠٧/٣، وابن كـثير ٧/١٠ =

ونسبوا إلى يزيد بن الوليد قولـه لما قُتل الوليد، : لقد خرجت يوم ظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمةٍ، والراكب لكل بدعةٍ، مع أنه، والله ما كان يُصدق بالكتاب ولا يؤمن بيوم الحساب . . .».

ومن كتاب يزيد إلى أهل العراق:

«فإن عدوَّ الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلاّ أراد تبديله والعمل فيه بغير ما أنزل الله، وكان منه ذلك شائعاً شاملاً[1] . . .

ورمي الوليد أيضاً بعشرات التهم الأخـرى، بلغت الغاية في الانحطاط والانحلال[2] . . .

وبالإضافة إلى تلك التهم الشائنة والخطيرة، فقد رمي بغرامه بالنسوان، ومعاقرة الخمرة، ونظمه القصائد فيها.

وذكر «بروكلمان» أن الوليد فتح للعرب، باباً جديداً للإباحيّة الشعرية، هو القصيدة الخمرية، ونحن ـ كما

= والعقد الفريد ٥/٤٦٠، وخزانة الأدب ٢/٢٨، وتاريخ الخلفاء /٢٢١، وأخبار الدول ١٣٢.

(١) الطبري، ٧/٢٦٨ و٢٧٦، وتاريخ خليفة بن خيـاط ٢/٥٥٠.

(٢) انظر قصته مع ابن عائشة، في مروج الذهب ٣/٢٢٧.

يقول بروكلمان ـ نستطيع أن نعدَّهُ مخترع هذا الفن الشعري حقاً، هذا الفن الذي قدّر له أن ينمو ويزدهر في ظل العباسيين، وقد ترسم الوليد في هذا خطا عديّ بن زيد، الشاعر النصراني الذي لمع نجمه في آخر عهد المناذرة بالحيرة؛ وإنما عرَّف الوليد به نديمه القاسم بن الطفيل الذي كان نصرانياً من الحيرة»[1].

هذا ما قاله بروكلمان، وهو كلام موزون ومعقول، أما مؤرخونا، فكان لهم طريقة أخرى في الاتهام.

فقد زعم القرماني مثلاً، أن الوليد اصطنع بركةً من الخمر، وكان إذا طرب ألقىٰ نفسه فيها وشرب حتى يظهر النقص في أطرافها[2]...

وذكر الأصفهاني، أن خمريات الوليد لم تُسبق، وقد انتحل من جاء بعده معانيها، ومن هؤلاء أبو نواس الذي انتحل قصائده كلها، وقد تناقل الناس معانيها ونسجوا على منوالها.

وذكر أن أفضل خمرياته قصيدته:

اصْدعْ نجيّ الهمّ بالطرب
وانعمْ علىَ الدهرِ بابنةِ العنبِ

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية بيروت ١٩٦٨، ص ١٦١.
(٢) أخبار الدول /١٣٢.

واستقبلِ العيشَ في غضارتـه
لا تقفُ منـه آثـار معـتقـبِ
مـن قهـوةٍ زانهـا تقـادُمهـا
فهي عجوزٌ تعلو على الحقبِ
أشهى إلى الشَّرب يوم جلوتها
من الفتـاةِ الكـريمـةِ النسبِ

ونسب إليه الأصفهاني أيضاً قوله:

أُشهـدُ اللهَ والمـلائكـةَ الأبـ
ـرار والعابدينَ أهـل الصلاح
أنني أشتهي السّماع وشُربَ الـ
ـكأسِ والعضّ للخُدود الملاح
والنديم الكريم والخـادِمَ الفا
رِه يَسعى عليّ بـالأقـداحِ[1]

وقال حمزة بن بيض في الوليد:

أبداً هاتِ، ثم هـاتِ وهاتي
ثم هـاتي حتّى تخـرّ صعيقـا
أنت سكران ما تفيـقُ فما تر
تق فتقـاً، وقـد فتقت فتـوقـا

(١) الأغاني، ١٩/٧ و ٢٠ و ٢٢.

وليس قصدنا تتبعٍ خمرياته، فقد تحدث عنها الأدباء والمؤرخون طويلاً. وإنما نريد عرض نماذج من الاتهامات الموجهة إلى الوليد.

ولا بد أولاً، من الإشارة إلى أن كثرة المؤرخين الذين يروون الخبر نفسه، لا تعني بالضرورة أنه صحيح دائماً.

فابن جرير الطبري، يُعد المنهل الرئيسي الذي نقل منه معظم المؤرخين الآخرين، وابن جرير نفسه يذكر الرواية بسندها ويترك للقارىء تمييزها ويحسب نفسه قام بواجبه ما دام قد ذكر السند، ولكن المؤرخين الذين جاؤوا من بعده، نقلوا الرواية، وأهملوا السند، أي الرواة، وصار بعضهم ينقل عن بعض، وهذا كالخبر الكاذب، يطلقُه بعضهم، فيردّده الآلاف مع أنه لا أساس له أصلاً.

ونعود إلى الوليد، فنقول ونكرر القول إنه ليس قصدنا براءته أو إدانته، وإنما معرفة القيمة الحقيقية للأخبار والروايات التي نسجت من حوله، وبالتالي الوصول إلى حكم منطقي عنه، بعيد عن الهوى والخيال. وقبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى الحديث المنسوب لرسول الله ﷺ، والذي رواه أحمد في مسنده، والذي استند إليه معظم المؤرخين ليثبتوا صحة الاتهامات ضد الوليد.

ونص الحديث «أنه ولد لابن أمّ سلمةَ ولدٌ فسمّوه الوليد، فقال عليه السلام سميتموه بأسماء فراعنتكم، ليكونن في هذه الأمة رجلٌ يقال له الوليد لهو أشد لهذه الأمة من فرعونَ لقومه».

وكان الناس يظنون أنه الوليد بن عبد الملك، إلى أن جاء الوليد بن يزيد[١].

هذا ما ذكره المؤرخون.

والحديث، إسناده ضعيف لانقطاعه وسوء حفظ أحد رواته أبي بكر بن عياش، وقد حكم عليه الحافظ العراقي بالوضع، وأطال الحافظ ابن حجر بالردّ عليه.

هذا ما ذكره المشتغلون بالحديث، ونحن لا نريد الخوض في تفصيلات علماء الحديث، بل نكتفي بما ذكر من أنه موضوع ولا يعتد به.

ونتساءل لماذا سمّى عبد الملك بن مروان ابنه الوليدُ وهو أي عبد الملك، الذي قال فيه الشعبي «ما ذاكرتُ أحداً إلّا وجدتُ لي الفضل عليه، إلّا عبد الملك، فما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلّا زادني فيه»[٢]، كما أنه كان أحد الفقهاء الأربعة في المدينة، إنه لو صح هذا

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٧٣، والحديث في سنن أحمد ١/١٨.
(٢) الأعلام، ٤/١٦٥.

الحديث، أو كان له أصل فكيف غامر يزيد هو الآخر وسمّى ابنه الوليد؟.

هذا عن الحديث، ونأتي الآن إلى التهم، ونبدأ بتهمة الزندقة والكفر، فنقول إن الوليد حكم في صدر الإسلام تقريباً، حيث كان الإسلام هو الدين الرسميّ الفعلي للإمبراطورية العربية الإسلامية، وعلى الرغم من مظاهر الحكم الملكي الأمويّ، فإن ثمة فروقاً واضحةً بينه وبين الحكم الملكي، خارج العالم الإسلامي.

فالخليفة الأموي، أياً كان، لم يكن بوسعه تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم، وكان مستحيلاً على أي خليفة أن يجاهر بالزندقة، ويمزق المصحف ويبقى على قيد الحياة، لأن الناس كانوا أقوى بكثير من أن يسمحوا بذلك، لقد كان الخليفة ملتزماً التزاماً كاملاً بالإسلام، دين الدولة، ولم يكن كأباطرة روما مثلاً، مطلق التصرف يفعل ما يشاء، بل كان مقيداً بأحكام الدين الإسلامي، وعلى ذلك فإنه لا يستطيع خرق أركان الإسلام، كلها أو بعضها، ولا سيّما أن قوة الإسلام في العصر الأموي، والعصور التي تلته، كانت هي الغالبة وهي المسيطرة على كل التصرفات.

والمآخذ التي وجهت إلى الأمويين كانت جَعْلهم بيت المال بمثابة بيتهم الخاص ينفقون منه كما يشاؤون،

وذلك بعد دفع الزكاة وتجهيز الصائفة وبناء المساجد وأماكن النفع العام، في حين كان بيت المال في العصر الراشدي ملكاً عاماً لا يجوز للخليفة الإنفاق منه خارج حدود الإنفاق الشرعي،

أما الحكم الملكي نفسه، فهو إنْ لم يكن من الإسلام فإنه لم يكن يتعارض مع الإسلام، وإذا كان المسلمون قد اقتتلوا على الحكم في عصر الصحابة، فمن الطبيعي أن يقتتلوا في العصور التالية، وعلى هذا، فإنه بمقاييس تلك الأيام كان الحكم الملكي أمراً لا بدّ منه، بدليل استمراره عبر العصور.

وقد ورث سليمانُ داودَ، أي أن الإسلام لم يحرّم النظام الملكي وإنما حرم الظلم وانتهاك الحرمات والمحاباة، وإذا وصل إلى سدة الحكم ملوك جائرون، فإنه يمكن أيضاً أن يصل عن غير الطريق الملكي الوراثي ملوك من هذا الطراز أيضاً، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهذا يعني أن العيب ليس في النظام الملكي الإسلامي، وإنما في التجاوزات التي حصلت فيه.

والذي نود أن نقررهُ مبدأً ثابتاً أنه من الجهل بالإسلام أن يُتَّهم أحد الخلفاء بالكفر الصريح وتمزيق المصحف ويبقى على كرسي الحكم لأكثر من عام، ويؤيده مع ذلك

صالحو الأمة وعقلاؤها، كما سنرىٰ.

هذا المبدأ ضروري لمناقشة أي حاكم يحكم دولة إسلاميةّ، وهذا التمييز بين الحكم الملكي الإسلامي، والحكم الملكي في البلاد غير الإسلامية يجب أن يكون واضحاً، فالحكم الإسلامي الملكي، إذا ما قيس بغيره يُعدّ حكماً «ديموقراطياً» ولا يمكن وجود حكم إسلاميّ مطلق، بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، وبالتالي فإنه يستحيل عقلاً وجود حاكم إسلامي، في عصر ما، يكفر بالإسلام وينقض أركانه علناً، ويبقى مع ذلك في سدة الحكم.

أما إذا كان كافراً في أعماقه، ويتظاهر بالإسلام نفاقاً، فذلك أمرٌ لا يعلمه حقيقةً إلا الله تعالى، ولا يدخل هذا ضمن قدرات البشر.

ونعود بعد ذلك إلى التهم التي وجهت للوليد.

لقد ذكر الطبري وغيره، كما قدمنا، أن يزيد بن الوليد قال عنه «مع أنه والله ما كان يصدّق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب».

وقد تبين ببساطة، أن هذه العبارة مدسوسة على الوليد وعلى يزيد معاً، لأننا بالرجوع إلى نص خطبة يزيد في مختلف المصادر، تبين لنا أن أقدم مصدر لها، وهو تاريخ

خليفة بن خياط، المتوفى قبل الطبري بحوالي سبعين عاماً، لم يذكرها إطلاقاً، وما ذكره يزيد هو: «**أشفقتُ أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه (من شرب الخمر والغناء) فيجيبُه منكم من يجيبه**».

وعلى ذلك فعبارة الكفر، هذه مدسوسة في الطبري، ولا ندرِي هل كان ذلك في عصره، أم فيما بعد، وقد نقل ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم، نقلوا هذه العبارة كما هي[1].

ومن جهة أخرى، ذكر الأصفهاني، أنه جرى ذكر الوليد عند الخليفة المهدي فقال: أحسبه كان زنديقاً، فقام ابن علاثة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله عزّ وجلّ أعظم من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمّة من لا يؤمن بالله، لقد أخبرني من كان يشهده في ملاعبه وشربه عنه بمروءة في طهارته وصلاته، وحدّثني أنه كان إذا حضرت الصّلاة يطرح ثياباً كانت عليه من مطيبةٍ ومصبغة، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلّي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود، فإذا فرغ

---

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥٥، السطر ١٥ وقارن بما ذكره الطبري ٧/٢٦٨، السطر الثالث من الأسفل.

عاد إلى تلك الثياب، أفهذه أفعال من لا يؤمن بالله!

فقال له المهدي: صدقت بارك الله عليك يا ابن علاثة[1].

ودخل الوليد يوماً مجلس هشام فاستثاره، فغمز هشام من ندماء الوليد، فقال له الوليد: هم صالحون ولعنهم الله إن كانوا شراً ممن حضرك، ثم قال:

أنا ابنُ أبي العاصي وعثمانُ والدي
ومروان جدي ذو الفعال وعامرُ
أنا ابن عظيم القريتينِ وغيرها
ثقيفٌ وفهرٌ والعصاةُ الأكابرُ
نبيَّ الهدىٰ خالي ومن يَكُ خالَه
نبيُّ الهدى يقهرْ به منْ يفاخرُ[2]

فكيف يكون زنديقاً من يفتخرُ بانتسابه إلى نبي الهدى ﷺ ....

وأما الشعر الذي نسب إليه، وهو قوله:

تلعّب بالخلافة هاشميٌّ
بلا وحيٍ أتاه ولا كتابِ

(١) الكامل، ٥/٢٩١، والأغاني، ٧/٨٣، وفوات الوفيات ٤/٢٥٧.
(٢) الأغاني، ٧/٦.

فقلْ لله يمنعني طعامي
وقل لله يمنعني شرابي

هذا الشعر موضوع أو مدسوس، ذلك لأن صاحب الوافي بالوفيات ذكر أن الوليد قال في شهر الصيام:

ألا من مُبلغِ الرحمن عني
بأني تاركٌ شهرَ الصيَّامِ
فقل لله يمنعني شرابي
وقل لله يمنعني طعامي

وبمقارنة البيت الأخير في القصيدتين. يتضح التشابه والوضع[1].

وقد أورد «الأصفهاني» وغيره، قصيدة لمالك بن أسماء، قال فيها:

حبَّذا ليلتي بِدَيْر بُوَنَّا
إذ نُسقَّى شِرابَنا ونُغنَّى
فمررنا بنسوةٍ عطِرَاتٍ
وسماعٍ وقرقفٍ فنزلنا
منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيًا
ناً وخير الحديث ما كان لحنَا[2]

---

(١) الوافي بالوفيات، ٢٥٧/٥، وقارن بما أورده المسعودي في شذور الذهب، ٢٥٩/٣.

(٢) الأغاني، ٢٣٥/١٧ وسمط اللآلىء للبكري ص ١٦.

هذا الشعر لمالك بن أسماء الذي عاصر الحجّاج، حُرِّف وزيد فيه ثم نسب إلى الوليد بن يزيد دون أن يفطن إليه أحد.

فقد ذكر الأستاذ (خليل مردم بك) في مجلة المجمع العلمي العربي، قصيدة منسوبة للوليد بن يزيد، نشرها ضمن ديوانه، وهي:

حبّذا يومُنا بدير بُونَّا
حين نُسقَى شرابَنا ونغنَّى
ومررنا بنسوةٍ عطراتٍ
وغناء وقهوةٍ فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو
سَ مُجوناً، والمستشار يُحنَّا
وأخذنا قربانهم ثم كَفَّرْ
نَا لصلبان ديرهم فكفَرنا[1]

وهكذا نجد أن الشعر تغيّر ودُسَّ فيه الكفر، ثم نسب إلى الوليدِ، نسبه إليه القدماء والمحدثون، بدون تمحيص، مع أن الثابت أنه لمالك بن أسماء قيل قبل مولد الوليد نفسه.

(١) انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق، سنة ١٩٣٧، صفحة ٥٦ و ٥٧ بقلم خليل مردم بك وانظر الشعر نفسه منسوباً للوليد في: الأعلاق الخطيرة لابن شداد ٢٨١/٢/١، ومعجم البلدان لياقوت ٦٤٩/٢.

ومثل ذلك كثير، وإن تتبعَهُ يخرج بنا عن خطة الكتاب. وأما اتهام الوليد بأنّه كان على دين ماني، فأمرٌ مضحك، فقد ذكر الذي اتهمه، بأن ماني نبي لم يبعث قبله ولا بعده، بينما نرى أنه من عقائد المانوية الإيمان بنبوة آدم وشيت ونوح وإبراهيم وزردشت والمسيح وبولس، وهكذا نرى أن الذي اتهم الوليد بالمانوية، كان يجهل عقيدة ماني نفسه.

ثم ما الذي جاء برأس ماني إلى دمشق؟ وهو الذي عاش في القرن الثالث الميلادي؟ إن اتهام الوليد بالمانوية أمر واضح التلفيق[1].

وأما الخبر الذي انطلى على معظم المؤرخين فهو موقف الوليد من الكعبة المشرفة، واستهتاره بها.

والخبر باطل من وجوه.

فبعض الروايات ذكرت أنه كان ينوي إقامة خيمةٍ على ظهر الكعبة لكي يعاقر الخمرة فيها، وبعضها ذكرت أنه كان يريد أن يبني بيتاً ثابتاً فوق الكعبة! ليس هذا فحسب بل إن الوليد كلف بهذا العمل «بناءً مجوسياً» أيضاً...

وقد ذكر الأصفهاني أنّ «الوليد البندار» حجّ مع الوليد

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/٢٤٨، والموسوعة العربية /١٦٣٦.

ابن يزيد، وأنه خطب الناس خطبة مؤثرةً، وعاد إلى دمشق، ولم يذكر شيئاً عن جلوسه فوق الكعبة[1]...

ونقول: أي لذة في الجلوس فوق الكعبة وشرب الخمرة وهل الوليد من الغباء بالدرجة التي يفكر فيها بالجلوس فوق الكعبة وسط عشرات الألوف من الحجاج دون أن يخشىٰ على نفسه منهم!

إن أمراً كهذا لا يمكن أن يحدث في العصر الجاهلي نفسه فكيف يحدث في عصر الإسلام؟ لقد كانت قريش تقدس البيت الحرام في الجاهلية، ويقصده العرب للحج، وكان بنو عبد شمس، أجداد الوليد، مع بني عبد مناف يتولون سقاية الحاج وإطعامهم، ويجدون في ذلك شرفاً عظيماً لهم.

لقد كانت الكعبة المشرفة مفخرة العرب وعزّهم، ولم يحاول أحد أن يمسّها بسوء، فكيف يعقل أن يأتي خليفة عربي مسلم قرشي ويبني فوقها بناءً ليشرب الخمرة فيه!

لقد كان الوليد، كما ذكرنا، وهو ولي العهد يطعم الصادرين عن الحج ثلاثة أيّام ويعلف دوابهم[2]، ولذلك

---

(١) الأغاني، ٧/ ٥٩.

(٢) الطبري، ٧/ ٢١٧.

فإنه من السذاجة والغفلة أن نلقي بالاً لما قيل عن الوليد في أمر الكعبة، أو نوليه أية أهمية.

وأمّا حديثهم عن اعتداء الوليد على ابنته، فقد أغنانا الأصفهاني عناءَ تكذيبه عندما قال بأنه مدسوس على الوليد لأنّ قائل البيت «من راقب الناس مات هماً» هو سلم الخاسر الذي لم يدرك زمن الوليد، وإنّما مات بعده بستين عاماً، أي سنة ١٨٦ هـ، وهذا يوضح مدى الوضع في كتب التاريخ العربي، والمشكلة أن الذين نقلوا عن الوليد هذا الخبر، لم ينقلوا تكذيب الأصفهاني له[١].

لقد كان الوليد هو الباب الذي يشنع منه الحاقدون على بني أمية، وكثرة الوضع عن الوليد إنما يقصد بها النيل من طرف خفي من الأمويين جميعاً، باعتبارهم القوة العربية التي دفعت بالعروبة والإسلام شرقاً وغرباً، وأذعن لها الجميع طوعاً أوكرها.

ومن التهم الأخرى رَمْيُ الوليد بنكاح أمهات أولاد أبيه، أي الجواري اللواتي وَطِئَهنَّ أبوه يزيد، وإذا علمنا أن الفتوحات العربية الإسلامية كانت في أوجها زمن هشام، أدركنا أنه لم يكن ثمة ما يدعو الإنسان إلى نكاح

---

(١) الأغاني ٧/٦١.

المحارم ما دامت عشرات الآلاف من السبايا تصل إلى دمشق ويتمتع بهنّ الرجل العادي، وقد قال الوليد لمحاصريهِ يوم اتهموه بذلك «إن فيما أحلّ الله لي لسعة عن ذلك»(١).

أما اتهامه بعمل أهل لوط، وإتيان الذكور، فتلك تهمةٌ غير مؤكدة، وقد لا تصمد أمام التحليل، لأن الذي يهيم بالغلمان، لا يمكن أن يكون غزله بالنسوان وهيامه بهنّ على شاكلة الوليد الذي نظم فيهن أجمل القصائد، في الوقت الذي لم يؤثر عنه فيه تغزّله بهذا أو ذاك من الغلمان، وعلاوة على ذلك فإن عمل أهل لوط لم يكن شائعاً في العصر الأموي، وإنما انتقل إلى العرب في العصر العباسي من الترك والفرس وذلك نتيجة الثراء الفاحش والترف الشديد الذي سيطر على الحياة العامة في بغداد.

لقد اقترن اسم الوليد بعدد من النساء كسعدة وسُلمى وسفرى وغيرهن، في الوقت الذي لم يرتبط فيه اسمه بأي غلام.

وقد ذكر المؤرخون عن سليمان بن يزيد، أخي الوليد الذي كان متآمراً ضده، أنه قال: أشهد الله أنه كان شروباً

---

(١) الطبري ٧/٢٤٦.

للخمر، ماجناً فاسقاً، ولقد أرادني عن نفسي الفاسق، فصاحت مولاة للوليد: كذبَ واللهِ الفاسقُ، والله ما فعل، ولئن كان أرادهُ عن نفسه لقد فعل، وما كان ليقدر من الامتناع منه[1].

أمّا صلاة الجارية بالناس، فكيف أجاز المؤرخون لأنفسهم ذكرها، وهي أوهى من بيت العنكبوت!! ولو كان المصلّون عمياً لعرفوها من صوتها.

إنّ الوليد لم يكن على تلك الدرجة من الاستهتار، ولكنّ أعداءه عمدوا إلى التشنيع عليه، فشنّعوا على أنفسهم من حيث لا يدرون، ولقد سقنا رواية «الجارية» التي صلت بالناس، لنبين المدى الذي انحدر إليه بعضهم بدافع الحقد والعداء واللؤم.

وقد وقف الوليد على هشام بن عبد الملك، بعد دفن أخيه مسلمة، فقال بصوت جهوريّ سمعه الجميع:

«إنّ عقبىٰ من بقي لحوق من مضىٰ، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن يرىٰ، واختلّ الثغر فوهى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى»[2].

---

(١) الطبري ٢٥١/٧.

(٢) الأغاني ٧/٧.

وروي عن الوليد، أنه ألقى إحدى خطبه يوم الجمعة شعراً وبالاطلاع على ذلك الشعر نستطيعُ معرفة عقيدة الرجل وأفكارهُ وحقيقة إيمانه، وقد اقتطفنا منها بضعة أبيات من أصل تسعة عشر، لتكون شاهداً على فكر الوليد:

الحمدُ للّهِ وليِّ الحمدِ
أحمدُه في يُسْرنا والجهد
وهو الذي في الكرْب أستعينُ
وهو الذي ليس له قرين
أشهدُ في الدنيا وما سواها
أن لا إله غيرهُ إلها
ما إنْ لهُ في خَلْقه شريكُ
قد خضعَتْ لملكه الملوك

أشهدُ أن الدين دين أحمدِ
فليسَ من خالفهُ بمهتدي
أشهدُ أن الدين دين أحمدِ
فليسَ من خالفهُ بمهتدي

وأنّه رسول ربّ العرشِ
القادرِ الفرد الشّديد البطش

أرسلهُ في خلقهِ نذيرا
وبالكتاب واعظاً بشيرا
من يطع الله فقد أصابا
أو يعصه أو الرسول خابا
فاستغفروا ربكم وتوبُوا
فالموت منكم فاعلموا قريبُ[1]

وكان نقش خاتم الوليد «يا وليد احذر الموت». ولو استعرضنا رسائل هشام إلى الوليد، وما أكثرها، ما وجدنا فيها اتهاماً واحداً للوليد بالكفر والزندقة والاستهتار بالكعبة ونكاح المحارم، ولو كان هشام يعلم ذلك من الوليد ما تردد في عزله، أو على الأقلّ، التشهير به، وكل ذلك لم يكن.

بل إنه عندما سَيَّرَ هشام، عمرو بن شرحبيل وجماعة من «القدريَّة» إلى دهلك، تكلم الناس مع الوليد يوم صار خليفة، بإطلاق سراحهم، فأبى وقال: «والله ما عمل هشام عملاً أرجى له عندي أن تناله المغفرة، من قتله القدرية وتسييره إياهم»[2].

ويبقى اتهامه بالشراب، والغناء، والولع بالنساء،

(١) الأغاني ٧/٥٨.
(٢) الطبري ٧/٢٣٢، وسيأتي الحديث عن القدرية فيما بعد.

وتلك تهم لم ينكرها الوليد نفسه.

وموضوع الشراب، في العصور الإسلامية، ولاسيّما العصر العباسي، شغل الناس والفقهاء والشعراء، وكان الوليد يعاقر الخمرة، ما في ذلك شك، وذلك أمر محرَّم، وروايات المؤرخين، أو بعضها على الأقلّ، تحمل عنصر الإثارة والتشويق أكثر مما تحمله من الحقيقة.

فالوليد مثلاً، كما ذكرنا، يملأ البركة خمراً، ويلقي بنفسه فيها، أي أنها ليست صغيرة، ويشرب الخمر حتى يظهر النقصُ في أطرافها...

وذكر آخرون أنه شرب في ليلة واحدة سبعين قدحاً، ولا ندري ما حجم القدح أو الكأس.

والحقيقة التي نراها وسط ذلك كله، أن الوليد كان يشرب الخمرة، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يفقد فيه عقله، أو يضيع صلواته، أو يرتكب المحرمات، لقد كان لمجلس الشراب عنده قواعد وأصول وتقاليد، وهو القائل أتمنى أن يكون الكأس بدينار، حتى لا يشرب إلّا كريم.

وكان يحبّ الطرب بالقدر ذاته، وكذلك النساء، وكانت هذه الأمور شائعة في عصره، وكان لأبيه اليد الطولى فيها، ومع ذلك فقد نسبوا إلى الوليد قوله لبني أمية:

«إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدر المروءة ويفعل فعل السحر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإنه رقية الزنى، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إليّ من كل لذةٍ، وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذي الغلّة، ولكن الحق أحق أن يقال»[1].

ونحن لا نلتمس الأعذار للوليد، ولا نحلل حراماً، ولكننا نحاول إظهار الوليد على حقيقته، بعدما لطخ المؤرخون سيرته بمختلف الألوان حتى أخفوا صورته الحقيقية ونسبوا إليه من التهم ما لم ينسب إلى فرعون أو هامان، والناس عادة مغرمون بالمبالغات وإطلاق الكلام بدون حساب، وأسوأ ما يُبْتَلَى به الملوك أن تصبح سيرتهم على كل لسان. إن الطعن بالوليد إنما هو طعن ببني أمية وبالعرب المسلمين جميعاً في العصر الأموي، لأن بقاء ملك هذه صفاته، خمسة عشر شهراً على سدة الحكم، إنما يعني أنه يحكم مجموعة من الغافلين، ولعلّ هذا ما أراده الذين دسوا على الوليد تلك الروايات، ولئن وجد من كذب على رسول الله ﷺ متعمداً، ولم يبال بذلك، فمن الطبيعي وجود من يكذب على هذا الخليفة أو ذاك، ولئن قيض لعلم الحديث من ينقّحُهُ، فإن

---

(١) الأغاني ٧/ ٧٠.

علم التاريخ يحتاج إلى من يفعل ذلك أيضاً، ولاسيما التاريخ الأموي.

وإذا أردنا تقييم الوليد بعد ذلك كله، فإننا نقولُ إنَّهُ خليفة ورث عن أبيه ولعه بالنساء والخمرة والغناء، وذلك بسبب بقائه عشرين عاماً بعيداً عن الحكم ومشاغله، وكان يرى أن هذه الأمور لا تعني أحداً سواه، ما دام قائماً بأعباء الحكم.

أما اتهامه بغير ذلك من الكفر والاستهتار بالقرآن الكريم والكعبة المشرفة وغير ذلك، فإنه أمرٌ لم يقم عليه دليل، وفيه الكثير من المبالغات، وإن أقرب من كتب عن الوليد، وهو خليفة بن خياط، لم يذكر شيئاً عن سيرة الوليد، مما نجده في كتب التاريخ الأخرى التي اختلط فيها الواقع بالخيال. أما لماذا اختص المؤرخون الوليد دون غيره من خلفاء بني أمية بهذه الروايات الملفقة فذلك، لأنه أول خليفة قتل من خلفاء بني أمية، وعندما يقتل خليفة تنطلق الألسنة في محاولة لتبرير القتل إلى اختلاق الحكايات والأخبار، وإذا لم يَنْجُ عثمان بن عفان رضي الله عنه، على جلالة قدره من الأقاويل، فأمر عادي تماماً أن تكال للوليد تلك الكميات الهائلة من الاتهامات والمثالب، وكان مما ساعد النار اشتعالاً، أن

الوليد نفسه، فتح باب المؤاخذة عليه، عندما لم يعط الخلافة حقها من الوقار، فكان كما قال الشاعر:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
إلى بعض ما فيه عليك مقال

والناس عادة لا يقنعون بالواقع، وإنما يحبّون التهويل، فشجاعة عنترة مثلاً، لا ترضيهم إلا إذا جاوزت حدّ الخيال، ومن هنا عمد المؤلفون إلى نسج القصص الكثيرة حول عنترة، وغير عنترة، ومن سوء حظ الوليد، أن الناس نسجوا من حوله روايات بعيدة كل البعد عن الواقع، وصدقها الكثيرون، وبحسب المرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

لم يكن الوليد أفضل من غيره من خلفاء بني أمية، ولكنه بالتأكيد لم يكن أسوأ ممن جاء بعده من الخلفاء على مر العصور، لقد تحوّلت قصة الوليد مع مرور الزمن إلى ما يشبه قصص ألف ليلة وليلة.

وتبقى بعد ذلك كله، قاعدةٌ محيّرة في الجنس البشريّ، وهي أنه تكون أمام جميع الناس معلومات واحدة عن هذا الملك أو الزعيم، أو أي إنسان آخر، فنرى بعض الناس يقدس هذا الإنسان ويرفعه إلى أعلى الدرجات، في حين يعمد بعضهم الآخر إلى إعطاء

صورة عكسية تماماً للرجل نفسه، ومن المعلومات نفسها.

وعلى هذا فقد تكون المشكلة أحياناً في القضاة وليس في المتهم، لأنه إذا كان في النفس ميل إلى الهوى والحقد والغل والحسد، فإنه يعدل بصاحبه عن جادة الحق، ومعظم الناس، يصدرون الأحكام مسبقاً، ثم يبدؤون في البحث عن الأدلة، أدلة الإدانة. فإن وجدوا فيها شيئاً بالغوا فيه وكبّروه، وإن وجدوا أدلة البراءة، تجاهلوها، فهم بذلك يحاولون إدخال الجمل في سم الخياط.

ومن الغريب أن نرى بعض المستشرقين أكثر إنصافاً لخلفائنا، منا نحن العرب والمسلمين، لأنهم يذكرون الرجل بما فيه من خير وشر، بعيداً عن الهوى والأوهام، ولو فعلنا مثلهم، لأنصفنا كثيراً من المظلومين، ولزالت الغشاوة التي تعمي القلوب والأبصار وتذكي الحقد والانتقام عبر العصور على الرغم من أن الحقيقة واضحة وضوح الشمس.

وقد قيل للوليد، إن الرعية ضاعت بتضييعك أمرها، وتركك ما يجب عليك من أمر مصلحتها، فقال:

ما الذي أغفلناه من واجب حقّها وأسقطناه من مفروض زمامها؟

أَمَا كرمُنا دائم، ومعروفنا شامل، وسلطاننا قائم، وإنما لنا ما نحن فيه، بُسط لنا في النعمة، ومُكّن لنا في المكرُمة، وأذلَّت لنا الأمة، ومُدّ لنا في الحرمة، فإن تركتُ ما به وسِّع، وامتنعت عما به أنعم، كنت أنا المزيل لنعمتي، بما لا ينال الرعية ضُرُّه، ولا يؤذيها ثقله»[1].

وثمة أمر أغفله المؤرخون، وهو أنهم نسوا في غمرة اتهاماتهم للوليد، أن يذكروا منجزاته العمرانية التي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

إن الوليد، بحبه للبادية، ترك لنا مجموعة من القصور الرائعة، وذلك خلال السنوات الطويلة التي قضاها في البادية، منها قصر المشتى بأريحا، وهو قصر مشهور، وقد أهدى السّلطان عبد الحميد جزءاً كبيراً من «أفريز» واجهته إلى القيصر وليم الثاني، وهو معروضٌ اليوم في متحف القيصر فردريك ببرلين، وهو يعد نموذجاً لأول الطرازين المتمثلين في الصحراء، أي المخيم البدوي الحجري، ويقوم هذا القصر على مربع من الأرض ضلعه حوالي مائة وأربعين متراً..

(١) زهر الآداب للحصري، بتحقيق علي محمد البجاوي ٩٠٤.

وهناك «قصر عمرة» إلى الشمال الشرقي من البحر الميت.

وكذلك قصر «خربة المنية» إلى الشمال الغربي من طبرية، وقد عثر في الحفريات على دينارين يتفق تاريخهما مع تاريخ نقش هناك، ينص على أن الوليد الثاني هو الذي أمر ببنائه.

وثمة «قصر القسطل» جنوب عمّان ببضع وثلاثين كيلومتراً، وهنالك بناء يعرف «بالأزرق» في المنطقة نفسها، وهو الذي كان يمضي فيه معظم أوقاته.

وأخيراً فإن هناك قصراً ضخماً إلى الشرق من دمشق بحوالي ١٥٠ كيلومتر، يدعى قصر «سيس» وهو في موقع محصّن يشتمل على جهاز للريّ، وغالب الظن أنه من المباني التي أقامها الوليد، وهو الوحيد من الآثار الباقية من نوعه[١]

أما في الأدب فقد ذكر ابن النديم عن أبي العباس ثعلب أن الوليد بن يزيد قد جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، فهذه الحياة العابثة إذن،

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، فيليب حتي ٢/١٢٥، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان/١٥٣.

تركت تراثاً حضارياً لا يزال إلى اليوم وهو ما أغفله المؤرخون [1].

خامساً ـ نهايَةُ الوليد:

١ ـ لماذا قتل الوليد؟

لم يعد صعباً، بعدما قدمناه، أن نتخيل الأسباب التي تذرع بها أعداء الوليد للإطاحة به ومن ثم قتله، والأمر المؤكد هو أن هؤلاء لم ينطلقوا من مبدأ ديني البتة، أي أنهم لم يقتلوا الوليد غضباً لله ورسوله، وإنما قتلوه غضباً لخالد القسريّ وغيره.

لقد حاول كثير من صلحاء بني أمية، أن يقفوا في وجه الناقمين على الوليد، ويُبينوا لهم خطورة الأمر الذي يقدمون عليه على الدين وعلى الدولة معاً، ولكنهم لم يجدوا آذاناً مُصغية، إنّ قتل الوليد لو كان بدافع ديني لما تخلف أحد من المسلمين عن المشاركة فيه، ولكنه لم يكن كذلك، ولم يكن القائمون عليه ممن يوصفون بورعٍ أو دين، كما سنرى.

إنه لم يكن لله نصيب في قتل الوليد، وإنّما كان النصيب الأوفى، للعصبيات والأحقاد والمطامع والضغائن والأهواء. . .

---

(١) الفهرست / ١٣٤.

وسوف نرى في اغتيال الوليد، ومن جاء بعده من الملوك والسّلاطين، أن الحقد الشخصي كان يلعب الدور الحاسم في معظم الحالات.

إنه لا يكاد حاكم يخلو من أناس ينقمون عليه، ولكن النقمة وحدها لا تؤدي إلى مصرعه، ما لم يظهر الذين يحوّلون النقمة إلى سيوف قاطعة، وهو ما حصل للوليد بن يزيد.

فمن تلك الفئات الناقمة عليه؟.

أولى هذه الفئات وأقواها «القحطانية» من جماعة خالد القسريّ، وحلفائهم من آل القعقاع وهؤلاء قاتلوا حمية، ولم يقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا.

ثانياً: أولاد الوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك ما عدا العباس بن الوليد، ومسلمة بن هشام، وكان هؤلاء ينقمون على الوليد وصوله إلى السلطة، ويرون أنهم أحق منه بهذا الأمر، لأنهم أولاد الأخ الأكبر، صاحب الفتوحات، أما أولاد هشام فكانوا يرون أنهم أحق بالخلافة لأنهم أولاد الخليفة الكبير.

وقد استغلّ، أحد أولاد الوليد، وهو يزيد، هذا الحقد والحسد الذي ملأ قلوب بني مروان على الوليد بن يزيد، أحسن استغلال حتى قضى عليهم وعلى الوليد وعلى

الدولة الأموية كلها، ولم يحكم أكثر من ستة أشهر.

وحتى نعرف الوليد، لا بدّ من معرفة يزيد، لأنه بضدها تتميز الأشياء، كما يُقال.

أما أبوه فهو، الوليد بن عبد الملك، وليس في ذلك مشكلة، لأنه أشهر من أن يعرّف.

وأما أمه فتدعى «شاهفرند» بنت فيروز بن يزدجرد ملك الفرس، أرسلها قتيبة بن مسلم إلى الخليفة الوليد، فولدت يزيد هذا، وجدة فيروز كانت بنت خاقان ملك الترك، وأما جدة يزيد لأمه فهي بنت قيصر ملك الروم، أي أن أصول يزيد من جهةِ أمّه، فارسية وتركية ورومية، وفي ذلك يقول مفتخراً:

أنا ابن كسرىٰ وأبي مروانْ
وقيصرُ جَدّي، وجدّي خاقان(١)

وعلى هذا فيزيد بن الوليد، أوّل خليفة في الإسلام من أم غير عربية، وقد كان هذا أمراً مستغرباً في العصر الأموي، ولكنه أصبح طبيعياً في العصر العباسي، ولا شك أنه كان للأصول الفارسية والتركية والرومية أثر هام في رغبة يزيد في الوصول إلى كرسي الخلافة الإسلامية في دمشق.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٧٥.

وقد وصف يزيد هذا بأنه كان أسمر خفيف العارضين، صغير الرأس، جميلاً، في فمه بعض السعة، وكان كثير اللجاج والمجادلة والمناورة، شديد الرغبة في الحكم، كما سنرى.

ثالثاً - «القدريّةُ» وهم أصحاب مذهب ديني بدأ في الظهور في أواسط العصر الأموي، وقد تبلور في البصرة، ثم في بيئة دمشق وأخيراً في بيئة المدينة المنورة، وقد ساعد هذا المبدأ على زيادة الترابط بين الناقمين لأنه اجتمعت لديهم قوتان: العصبية القبلية، والعصبية المذهبية، وكل منهما شر من الأخرىٰ، وقد كان يزيد قدرياً متعصباً، بالإضافة إلى مواهبه الأخرىٰ.

فما علاقة القدرية بالوليد بن يزيد؟.

القدرية مذهب - على عكس ما يدل عليه اسمه - يقول إنّ الإنسان حرٌ في تصرّفاته وأفعاله، خيراً كانت أمْ شرّاً، والله تعالى لا يلزم العاصي بالمعصيةِ ولا الكافر بالكفرِ، وما دام حراً فإنه يستحق الثواب والعقاب من الله تعالىٰ على أفعاله وأقواله، وإلّا انتفى مبدأ الثواب والعقاب، وقد كان هذا المبدأ هو النواة التي قامت عليها المعتزلة فيما بعد.

وليس قصدنا الدخول في مناقشات كلامية، وإنما نريد

أن نوضح علاقة القدرية بما نحن بصدده من سيرة الوليد ويزيد.

ويقول أحد الباحثين المعاصرين، ممن يهوون تحميل الأمور فوق طاقتها، ما خلاصتُه: أن بني أمية كانوا يدينون بمبدأ الجبرية، ويأخذون الناس به، هذا المبدأ الذي يقول إن كل شيء بقضاء وقدر، وإن على المسلمين الإيمان بأن القضاء والقدر خيراً كان أم شراً، هو من عند الله تعالى.

ثم يقول إن هذا المبدأ يثبت سلطانهم بدعوته الناس إلى الاستسلام للظلم الذي يعانون منه، وعدم الثورة على الحاكم، وهكذا استطاع الأمويـون أن يفعلوا ما يشاؤون من ضروب الظلم وأكل الأموال، لأن الناس كانوا مستسلمين لظلمهم، أي أنـهم مؤمنون بأن كل ما يقع عليهم من ظلم إنما هو شيء مقدر في الأزل، لا سبيل إلى دفعه.

أمـا القدريّـون، أو الأصح الـلاقدريّـون فيقـولـون بالعكس، كما شرحنا، ولذلك حاربهم الأمويون، أي أن القدرية مذهب سياسي يدعو إلى الثورة على الأمويين، وقد أرسى هذا المذهب قاعدته على أساس حرية إرادة الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله.

ولم يتحدّث الباحث عن ثورة يزيد بن الوليد وجماعته القدرية، ربما لأنها لم تصله، والمهمّ في الأمر أنه جعل القدرية والجبرية مذهبين سياسيين، يدعم الأمويّون أحدهما، ويحاربون الآخر لأسباب سياسية لا علاقة لها بالدين[1].

والواقع: أنه لا يوجد مذهب ديني في الإسلام يدعو إلى قبول الظلم والإذعان له، لأن الله تعالى يأمر بالعدل، وينهى عن البغي، وأما الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالىٰ، فلا يعني بحال من الأحوال السكوت عن الظلم وقبول الظلم، وإنما يدعو إلى الصبر عند المصائب، ويعني أن الإنسان لا يصنع قدره ولا يتحكم فيه، وهو مأمور باتخاذ الأسباب والعمل بما أمر الله، وليس عليه بعد ذلك أن يقول لو أني فعلت كذا، لكان كذا.

إن الربط بين القدرية النظرية، والقدرية العملية كما فلسفها الباحث أمر لم يخطر ببال الأمويين، ولا القدرية أنفسهم، وإنما كان الخلاف دينياً بحتاً: القدرية اجتهدوا، والفقهاء لم يوافقوا على اجتهادهم.

---

(١) اسم الباحث حسين مروّة، وعنوان كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية» الطبعة الرابعة، الجزء الثاني/٥٧٩ وما بعد.

وفي كتب التاريخ المعتمـدة أدلة كثيـرة، لو اطلع الباحث عليها لوفّر على نفسه وعلى غيره جهداً كبيراً، لا طائل من ورائه.

وكان (معبد الجهني) أول من تكلم بالقدر، وهو من الذين شهدوا صفين، وقد تضاربت الأقوال فيه، فقال الجوزجاني:

«كان قوم يتكلمون في القدر، ولم يتـوهّم عليهم الكذب، وإن بُلوا بسوء رأيهم، منهم معبد الجُهنيّ وهو رأسهم».

وقال الإمام الأوزاعي «أول من نطق في القدر، سوسن بالعراق، كان نصرانياً فأسلم ثم تنصّر، فأخذ عنه معبد، وأخذ غيلان عن معبد»[1].

وروي عن الحسن بن علي أنه كان يعيب قول معبد، ثم تلطف له معبد، فألقى في نفسه مـا ألقى. وقال الحسن البصريّ: هو ضالٌ مضل.

وقال طاووس: احذروا قول معبد فإنه كان قدرياً. وقد اشترك معبد في ثورة محمد بن الأشعث، وقتل فيها على يد الحجاج[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨٦/٤ ـ ١٨٧.

(٢) المصدر السابق ١٨٧/٤.

أما غيلان، فقد كان كاتباً كبيراً، عدّه الجاحظ من طبقة عبد الحميد الكاتب، وقد اتهم بسوء نشأته في صباه، وبأنه كان من أتباع الحارث بن سعيد، المعروف بالكذّاب، وقد استدعاه عمر بن عبد العزيز لمناظرته، فتراجع عن رأيه، ثم عاد إليه في عهد هشام، الذي استدعاه وقال له:

«قد أكثر الناس فيك فنازعنا أمرك، فإن كان حقاً اتبعناك وإن كان باطلاً نزعت عنه» قال: نعم.

فاستدعى هشامُ، ميمونَ بنَ مهران لمناظرته، فقال غَيْلان:

ـ أشاء الله أن يُعصى؟.

فقال ميمون: أَفعصي كارهاً؟، فسكت فقال هشام أجبه، فلم يُجبه، فقال هشام:

لا أقالني الله إن أقلته، وأمر بقطع يديه ورجليه ولسانه[1].

وهكذا نرى أن محاربة هشام للقدرية، لم تكن بدافع سياسي، وربما كان العكس هو الصحيح، أي أنّ القدريَّة أرادوا نشر آرائهم وتنفيذها، فوجدوا أن السيطرة على الحكم هي أقصر الطرق لبلوغ مآربهم، وقد نقم القدرية على هشام، وزادت نقمتهم على

---

(١) الطبري ٢٠٣/٧.

الـوليد بن يـزيد عنـدما رفض الإفـراج عن جماعتهم المنفيين، فقرروا الانقضاض عليه وقتله قبل أن يتمكن هشام ويبيد خضراءهم.

وقد اشتهر معظم الناقمين على الوليد بأنهم «قدرية». وكان لهم أتباع كثيرون في مختلف أنحاء الدولة، وكما قلنا فإن يزيد الناقص كان من أشدهم تحمساً، ولو كان الوليد قدرياً، لوجد من يدافع عنه حتى لو فعل أضعاف ما فعل، بدليل أن «المعتزلة» يفضلون يزيد بن الوليد، رغم قتله الخليفة الشرعي، على عمر بن عبد العزيز، لأنه قدريّ، أو معتزلي.

ويبقى السؤال: مـا الـدليـل علـى أن القائمين على الوليد كانوا من القدرية؟.

وللإجابة عن هذا السؤال، نورد فقرات متنـاثـرة وردت في كتب المؤرخين تثبت ذلك.

فمن كتاب لمروان بن محمد إلى الغمر بن يـزيد، يقول:

«غير أن رأيت غِيَراً[1]، إن لم أشمّر للقدرية إزاري وأضربهم بسيفي، يرمي قضاء الله بي حيث أخذ، أو يرمي بهم في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه»[2].

(١) غِيرُ الدهر: حوادثه المغيرة. (٢) الطبري: ٧/٢٨٢.

ووصف الطبري أيضاً «منصور بن جمهور» وهو من قادة الانقلاب الكبار بأنه كان أعرابياً جافياً غيلانياً، ولم يكن من أهل الدين، وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلانية، وحمية لقتل خالد[1].

وعندما ثار أهل حمص، بعد مقتل الوليد، قالوا لعاملهم «اقتل هذا القدريّ الخبيث»[2].

وفي كتاب «الروض المعطار» «فأقبل إليه يزيد بن الوليد من دمشق بالمعتزلة، وصلحاء القدرية، منكرين لفعله . . .»[3].

وذكر الذهبي عن الشافعي قوله:

«ولمّا ولي يزيد بن الوليد دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب أصحاب غيلان القدري الذي كان هشام قد صلبه»[4].

وفي العقد الفريد، أن يزيد كان يرى رأي القدريَّة ويقول قول غيلان، فألحّ عليه القدرية وقالوا «لا يحلّ لك

---

(١) المصدر السّابق ٧/ ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٦٧.

(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص ٨٤ عند الحديث عن (البخراء).

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٦.

إهمال أمر الأمة فبايعْ لأخيك إبراهيم، ولعبد العزيز من بعده، فلم يزالوا به حتى فعل»[1].

وذكر المسعودي بوضوح تام أن يزيد الناقص كان يذهبُ إلى قول المعتزلة في الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والوعيد والأسماء والأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2] ومن هنا كان تفضيلهم له ديانةً عن عمر بن عبد العزيز، كما سبق القول.

والخلاصة فإن «**القحطانية**» و«**القدرية**» شكلوا حلفاً قوياً شديد التعصّب للإطاحة بالوليد..

وقد بدأت حركات التمرّد على الوليد من رجال قحطان وشعرائها، الذين آلمهم قتل خالد على تلك الصورة المروّعة، بعد خدمته الطويلة لبني أميّة، فانطلق شعراؤهم يثيرون «الرأي العام» ضد الوليد، ويحرّضون على أخذ الثأر، والشعراء يتبعهم الغاوون...

ومما قيل في ذلك:

أعِدّوا آل حميرَ إنْ دُعيتمْ
سُيوفَ الهِند والأسَلَ النِهالا

(١) العقد الفريد ٥/٤٦٥.

(٢) مروج الذهب ٣/٢٣٩.

سنبكي خــالــداً بمهنّــدات
ولا تـذهبْ صنـائِعُـه ضَـلَالا

وقال آخر، معرضاً بالوليد:

وصلتَ سماءَ الضرّ بالضرّ بعدما
زعمت سماء الضرّ عنّا ستُقْلِعُ
فليتَ هشاماً كـان حيّاً يسُوسُنا
وكنّا كما كنّا نُرجّي ونطمعُ[1]

ومن الجهة الأخرى، كان يزيد يندسُّ بين الجماعات ويذكر مثالب الوليد ثم ينسحب وهو يقول «ما يسعنا الرضا بالوليد».

وأخيراً، جاءه «اليمانية» وأرادوه على البيعة، فشاور «عمرو بن يزيد الحكمي» فقال: لا يبايعك الناسُ على هذا، وشاور أخاك العباس بن الوليد، فإنه سيّـد بني مروان، فإن بايعك لم يخالفك أحد، وإن أبى كان الناس له أطوع، فإن أبيت إلّا المضيّ على رأيك، فأظهر أن العباس قد بايعك[2].

والتقى يزيد بأخيه العباس الذي كان امرأً صِدْق ولم

---

(١) الطبري ٧/٢٣٧.

(٢) المصدر السابق.

يكن في بني أمية مثله، وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز، كما يقول الأصفهانيّ، وكان اللقاء في القسطل، في الأردن، وعاب يزيدُ الوليدَ وتحدث في أمره، فقال له العباس:

«يا أخي إن الناس قد مَلُّوا بني مروان، وإن مشى بعضكم في أَمْر بعض، أُكلتم، ولله أجل لا بد أن يبلغه فانتظره»، فرجع يزيدُ إلى منزله، وصار الناس يبايعونه سراً، يساعده في ذلك الأحنف الكلبي ويزيد بن عَنْبَسة السّكسكيّ، وقوم من ثقاته من وجوه اليمانية وأشرافهم.

وعاود يزيدُ أخاه العباس، ومعه قَطن مولاهم، وأعاد عليه القضية، وشاوره في ذلك، وأخبره أن قوماً يريدونه على البيعة، فقال له العباس:

«مهلاً يا يزيد، فإن في نقض عهد الله فساد الدين والدنيا، ثم زجره وقال: إن عدت لمثل هذا، لأشدّنك وثاقاً، ولأحملنكَ إلى أمير المؤمنين، فخرج يزيد وقطن، فأرسل العباس إلى قطن فقال له: ويحك، أترى يزيد جاداً؟

قال جُعلت فداك، ما أظن ذلك، ولكنّه قد دخله مما صنع الوليد ببني هشام، وبني الوليد، وما يسمع من

الناس من الاستخفاف بالدين، ما قد ضاق به ذرعاً، فقال العباس:

أما والله إني لأظنّهُ أشأم سخلةٍ في بني مروان، ولولا ما أخافُ من عجلة الوليد، مع تحامله علينا لشددتُ يزيدَ وثاقاً وحملتُه إليه، فازْجُرُهُ عن أمرهِ فإنه يسمع إليك، فقال له يزيد: والله لا أكفّ»[1].

ولو وقفنا هنا وقفةً قصيرة، لفهمنا القضية كلها بأيسر جهد وأوضح بيان.

فالعباس، الذي كان بإجماع المؤرخين، أفضل بني أمية في عهده، والذي كان يتشبّه بابن عمه عمر بن عبد العزيز؛ حذّر أخاه من نقض البيعة، وهدده بحمله موثوقاً إلى «أمير المؤمنين» وألح عليه في لزوم الجماعة، وترْكِ ما هو بصدده، لسوءِ عاقبته على الدين والدنيا، فلماذا فعل ذلك، ولماذا لم يقف مع أخيه ضد الوليد لو كان الخروج عليه غضباً لله ورسوله؟ ألم يكن العباس أفضل بني أمية، وأحق بالقيام بالأمر من يزيد لو كان الأمر يقتضي ذلك؟ هل غيرة يزيد على الدين والحرمات، أكثر من غيرة العباس؟.

---

(١) الأغاني ٧/٧٣: والطبري ٧/٢٣٧.

إن ما حدث يعني أنّ قضية تنحية الوليد وقتله، لم تكن من المسلمات عند الناس، كما يحلو لبعضهم أن يقول، لأنها لو كانت كذلك، فلماذا انفرد «القحطانية» بها من دون سائر الناس؟.

لماذا عارض العباس أخاه يزيد ما دام ثبوت تهمةٍ واحدةٍ مما رمي به الوليد تكفي شرعاً لقتله، فهل كان يزيد أشد حرصاً على المسلمين وأكثر فهماً للإسلام من أخيه العباس؟.

إن الذي دفع يزيد للثورة هو رغبته في الحكم، وحقده الشخصيّ على الوليد، والعصبية القبلية والمذهبيّة، وهذا ما نؤكده وتؤكده الوقائع والأحداث، أما الغضب لله، والتظاهر بالصلاح، فلم يكن أكثر من قميص عثمان يستتر به الثائرون، وهو إن خدع الناس طويلاً، فإنه لا يجوز أن يخدعهم إلى الأبد.

ولم يكن الوليد بغافلٍ عمّا يُراد به، لكنه لم يكن يعبأ بالثائرين، فقد قال له معاوية بن عتبة يوماً:

«إني أسمع ما لا تسمع، وأخاف عليك ما أراك تأمن» فقال الوليد:

«للَّـهِ فينا عِلْـمُ غيبٍ، نحن صائرون إليه، ولو

علم بنو مروان أنهم يوقدون على جمرٍ يلقونه في أجوافهم ما فعلوا، ونعود ونسمع منك»[1].

وعلم أنصَار الوليد أيضاً بحركات يزيد ومن معه، فكتب مروان بن محمد، أسد الجزيرة، وفارس بني أمية، إلى كبير بني مروان سعيد بن عبد الملك بن مروان يقول:

«قد بلغني أن قوماً من سُفهاء أهل بيتك قد استنّوا أمراً، إن تمتْ لهمْ رويتُهم فيه على ما أجمعوا من نقض بيعتهم، استفتحوا باباً لن يغلقه الله عليهم، حتى تسفك دماء كثيرةٌ منهم، وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فُرُجاً، ولو جمعتني وإياهم، لرممتُ فساد أمرهم بيدي ولسَاني، ولخفتُ الله في ترك ذلك...» ثم قال مروان، وقد أصاب عين الحقيقة: «وقد امتدت بنا ـ أهل البيت ـ متتابعات من النعم، قد يعيبها جميع الأممِ وأعداء النعم وأهل الحسد، وقد أمّل قوم في الفتنة أملاً، ولكل أهل بيت مشائيم، يغيّر الله النعمة بهم، فأعاذك الله من ذلك»[2].

وقد كان مروان، بخبرته وتجاربه الكثيرة، يدرك حسد

---

(١) الطبري ٧/٢٣٨.

(٢) الطبري ٧/٢٣٩.

المـوالي، والفئـات الأخـرى لبني أميـة، ويحـذر من شرورهم، وقد أعظم سعيدُ ذلك، وبعث بالكتاب إلى العباس بن الوليد، الذي استدعى يزيدَ وعذَلـه وتهدده، فحلف يزيد ـ كاذباً ـ أنه لم يفعل، فصدّقه العباس ثم قال:

«إني أُعـيـذكمُ بـالله من فتن
مثل الجبال، تَسامى ثم تندفعُ
إنّ البريَّة قـد ملَّت سياستكم
فاستمْسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تُبقّـرنَّ بـأيـديكم بـطونكمُ
فثم، لا حسْرةٌ تغني ولا جزعُ»

٢ ـ كيف قتل الوليد

وفي تلك الأيام العصيبة الحاسمة، كان مُعْظَمُ بني أميَّة في البواديْ، لطاعونٍ كان قد ظهر في دمشق.

فالوليد كان في منتجعه في الأزرق. . .

والعباس كان في القسطل، ويزيد على أميال منه، أما دمشق، عاصمة الخلافة فكان واليها عبد الملك بن محمّد بن الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت فيها دواوين الدولة وخزائنها.

وقد قاد «يزيد بن الوليد» أول عملية «انقلاب» في تاريخ دمشق، وكان انقلاباً كاملاً أعده تماماً، وأحكم تنفيذه مستغلاً تشتت شمل الوليد، وتفرق أنصاره وجيشه، مستفيداً من عنصر المباغتة والمفاجأة، معتمداً على ثقة الوليد ومن حوله بأنفسهم، واستبعادهم التام، لفكرة الانقلاب، بالطريقة التي نفذ فيها، وقد ساعده على ذلك، تحمس أنصاره ـ أي أنصار يزيد، ورغبتهم الجامحة بإسقاط الوليد، للأسباب التي ذكرناها.

وفي يوم ماطرٍ من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ - آذار سنة ٧٤٤ م ـ حلّ بقرية جيرود، إلى الشمال الشرقي من دمشق، سبعة أنفار متنكرين، يركبون الحمر، ونزلوا ضيوفاً على عباد بن زياد، وكانوا قد لقوا من سفرهم نصباً، فارتمى أحدهم على الأرض ونام، وطلب الآخرون القرى، فجاءهم مولى لعباد بن زياد، بدجاج وسمن وعسل وتوابل، فطعموا، وصاحبهم نائم، وعرفهم المولى، كما عرف سيدهم النائم، الذي لم يكن إلا الخليفة المنتظر يزيد بن الوليد ثم انطلقوا نحو دمشق. فوصلوها ليلاً. واتجهوا من فورهم إلى «المزّة» في غربي دمشق، وكان أهلها قد بايعوا، لأنهم من «القحطانية» ولم يبق فيها إلا معاوية بن مصاد، الذي تردد في البيعة

ليزيد، ودخل عليه يزيد، فبايعه، وعاد مع أصحابه إلى دمشق.

وكان، واليها عبد الملك، يقيم بقرية «قطنـا» في الجنوب الغربي من دمشق، هرباً من الطاعون، وقد أناب عنه ابنه، وكان على شرطته كثير بن عبدالله السلمي، وقد رأى يزيد، أن السَّاعة المواتية لظهوره قد أزفت، ولم يعد للانتظار معنى فانطلق أعوانه ينفذون ما أعدوا له من قبل، بمنتهى الدقة والحذر، وأنصار الوليد نائمون لا يدرون بشيء مما يجري من حولهم[1].

وكان عنصر المفاجأة، هو أهم عنصر في الحركة كلها، وهو الذي اتبع في اغتيال المتوكل وتوران شاه وقطز والأشرف، وغيرهم.

وأخيراً حانت ساعة الصفر

ففي إحدى ليالي الجمع، من شهر جمادى الآخرة، دخل أربعون من أنصَار يزيد، إلى الجَامع الأموي، مع أذان العشاء الآخرة، وصلّوا، وكانت ساعة الصفر بعد الصلاة مباشرة. . .

وكان للجامع حرس، يتولون إخراج الناس منه عقب

---

(١) الأغـانـي ٧/٧٦، وتاريخ خليفة بن خياط ٢/٥٤٩.

صلاة العشاء، فإذا خرجوا، خرج الحرس، وأغلق صاحب المسجد الأبواب، ودخل الدار من باب المقصورة، فيدفع المفاتيح إلى من يحفظها ويخرج.

وصاح الحرس برجال يزيد، فجعلوا يخرجون من باب، ويدخلون من باب، حتى لم يعد في الجامع أحد غيرهم والحرس، وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرونها، فانقضوا على الحرس وأوثقوهم، وسيطروا على الجامع، ومضى زعيم القوم يزيد بن عنبسة، إلى يزيد بن الوليد وقال له:

«قم يا أمير المؤمنين، وأبشر بنصر الله وعونه».

فقام وهو يقول: «اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعنّي عليه وسددني له، وإن كان غير ذلك فاصرفه عني بموت[1]، وأقبل في اثني عشر رجلاً، فلما كان عند سوق الحمر، التقى بأربعين آخرين من أنصَاره، وعندما وصلوا إلى سوق القمح، لقيهم زهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه، وطرقوا باب المقصورة المُفضية إلى قصر الخلافة «قصر الخضراء»، وزعموا أنهم رسُل الخليفة، ففتح لهم ودخلوا فاعتقلوا العمال والخزان وصاحب البريد، وتمت بذلك السيطرة على قصر

---

(١) تاريخ خليفة ٢/٥٤٨ والطبري ٧/٢٤١.

الخلافة، وبالتالي تمت السيطرة على دمشق.

وكانت الخطة قد أعدّت بإحكام ونفذت بإحكام، وكانت الخطوة التالية، اعتقال أنصار الخليفة خارج دمشق، فأرسلوا إلى محمد بن عبيدة، صاحب بعلبك فاعتقل، ثم أرسلوا إلى عبد الملك في قطنا، فاعتقل، وأصابوا منه ستين ألف دينار دفعوها إلى يزيد فتقوًّى بها واشتد ساعده.

وبعد ذلك، عين يزيدُ عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك «قائداً عاماً للانقلاب» وفوض إليه الأمور، فنادى في الناس «من كان له عطاء فليأت إلى عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة» وقال لبني الوليد تفرقوا في الناس يرونكم، وحضوهم على القتال.

وجاء الناس لأخذ أعطياتِهم فأخذوها، وطلب المقاتلين، ووعد بإعطاء ألفيٍ درهم لمن يشترك معهم في قتال الوليد، وأمهلهم أياماً يجتمعون بعدها في البادية بموضع يقال له «ذَنَبَة».

ودخل أهل المزة مع عبد الرحمن بن مصاد، من باب الجابية، فرآهم رسول للوليد، فارتاب بهم، فقتلوه، وهذا ينبىء عن طبيعتهم منذ البداية، وصار الناس

يتوافدون على يزيد في الجَامع مبايعين، فبايعه «السّكاسك» وكانوا في نحو الثلاثمائة وقد دخلوا من الباب الشرقي.

ثم أقبل يعقوب بن عمير في أهل داريا، فدخلوا من الباب الصغير، وتبعهم أهل حرستا وديرمران ودَوْمَة وجرش والحديثة والمناطق الأخرىٰ.

فقال شاعرهم في ذلك:

فجاءتهُم انصارهمْ حين أصبحوا
سَكاسكُها أهلُ البيوت الصّنادِدِ
وكلبٌ فجاؤوهم بخيل وعُدةٍ
من البيض والأبدان ثم السواعدِ
فأكْرِمْ بهم أحياء أنصار سنةٍ
هم مَنَعُوا حُرماتها كل جاحدِ
وجاءتهم شعبان والأزد شرّعاً
وعبس ولَخْم بين حام وذائد
وغسّان، والحيّان قيسٌ وتغلبٌ
وأحجم عنها كل وانٍ وزاهدِ[1]

وقسّم عبد العزيز جيشه إلى أربع فرق جعل على

---

(١) تاريخ خليفة ٥٤٩/٢، والكامل ٢٨٣/٥، والطبري ٢٤٢/٧ والأغاني ٧٨/٧، والبداية والنهاية ١٠/١٠.

الأولىٰ منصور بن جمهور، وعلى الثانية عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى الثـالثة هـرم بن عبدالله، وعلى الأخيرة حميد بن حبيب اللخمي، وخرج عبد العـزيز بجيوشه من دمشق.

والأمر المحيّر، أن ذلك كله جرى في دمشق، دون أن يحرك الخليفة الوليد ساكناً، وكأنّ الأمر لا يعنيه، لذلك لم يتخذ أي إجراء احتياطي في دمشق، يمكن أن يؤدي إلى دعم موقفه، بـل أقام في الأزرق، لا يعبأ بما يجري..

وقد وَصَلَتْ أخبارُ «الانقلاب» إلى الوليد، في اليوم الذي وقع فيه نفسه، عن طريق مولى له، تصادف وجوده بدمشق آنذاك، فساق مُسْرعاً إلى الأغدف، وأخبر الوليد بما رأىٰ، فلم يكترث له.

وأرسلت أم كلثوم بنت عبدالله بنت يزيد بن عبـد الملك، وكانت في دمشق، أرسلت من لدنها رسولاً يدعى عمرو بن مرة، فأخبر الوليد بأن عبد العزيز قد نزل اللؤلؤة، فلم يلتفت إليه.

وأتاه قائد شرطته برجل، فقال له: إني كنت بدمشق مع عبد العزيز، وقد أتيتك بالخبر، وهذه ألف وخمسمائة قد أخذتها، وقد نزل اللؤلؤة، وهو غاد منها إليك، فلم

يجبه والتفت إلى رجل كان بجانبه فقال له: كم بقي من النهر الذي تحفُره في الأردن؟ ولم يحرك ساكناً، ولم يوزع السلاح على أحد، ويبدو أنه كان شديد الثقة بنفسه وبشجاعته.

ووجّه الوليدُ رجلاً من بني أمية إلى دمشق، فاعترضَهُ رجال عبد العزيز، فما وسعه إلّا الاستسلام والمبايعة، ووصل الخبر إلى الوليد فقرر التحرك أخيراً..

واستشار أصحابه فيما يفعل، فأشار عليه بَيْهَسُ الكلابي، وكان به شفوقاً، وعليه خائفاً، بالتوجه إلى حمص، لأنها حصِنة، وفيها أنصاره، ويمكن أن يوجه منها الجيوش إلى يزيد فيُقتل أو يُؤسَر، وكان هذا الرأي من أفضل الآراء، وكاد يأخذ به، لولا أن تدخل عبد العزيز بن عنبسة، وأشار عليه بعدم الخروج إلى حمص وقال له:

«ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه قبل أن يقاتل ويعذر، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره».

وهذا الرأيُ، إما أنه صدر عن غباء، أو خيانة، لأنه ضيّع على الوليد الفرصة الذهبية للانتصار على المتمردين، لأنهم كانوا أعجز بكثير من دخول حمص والانتصار على الخليفة وأنصاره.

وصرف الوليد نظره عن حمص، تلك المدينة التي كانت من أكثر مدن الشام حزناً على الوليد وحقداً على قتلتِهِ.

وعرض عليه الأبرش الكلبي تدمر، وقال إنها حصِنة، فقال الوليد إن أهلها من بني عامر قد خرجوا عليّ، ولا آمنهم على نفسي، ثم عُرضت عليه «القريتين» فقال: أكرهها، قيل: فالهزيم، قال أكره اسمه، وأخيراً قيل له فهذا البخراء قصر النعمان بن بشير، وهو من بناء العجم، فوافق عليه مكرهاً. . . وأقبل من طريق السماوة، وترك الريف وهو في مائتين ونزل اللؤلؤة ثم غادرها إلى المليكة، فأتاه رسول من حمص بأن عمرو بن قيس قد وجّه له خمسمائة فارس. . .

وفي الصّباح أمر بالرحيل، وخرج على برذون عليه قباء خزٍّ وعمامة خز. . فلقيه بنو سليم وبنو النعمان ، وابن أخ الأبرش، كما لقيه أهل حمص، وسار معه أولاد الضحاك بن قيس وهم عزل من السلاح حتى استقر بهم المقام في البخراء. أما عبد العزيز، فقد التقى بالرجال في ذنبة، وكانوا في حدود ألف ومائتين، فنادى ثانية: موعدكم في «مصنعة» بني عبد العزيز بن الوليد بالبرّية، فاجتمع له فيها ألفا رجل، ومرت بهم أثقال الوليد فغنموها وتقدموا باتجاه البخراء، واحتل منصور بن جمهور القرىٰ المحيطة بالبخراء. . .

وفي سحر يوم الخميس ٢٨ جمادى الآخرة، سنة ١٢٦ - ١٧ نيسان ٧٤٤ م، وصلت جيوش يزيد بن الوليد إلى البخراء.

وأرسل عبد العزيز بن الحجاج، زياد بن الحصين الكلبي يدعو الوليد إلى كتاب الله وسنة رسوله، تماماً كما حدث في صفين، وهنا لا بد من وقفة.

إن كتاب الله، ليس وسيلة لكسب الوقت، أو خداع الناس، أو التحكم فيهم، كما أنه ليس حجة يتذرع بها الثائرون على السلطان الشرعي، أياً كان، وإذا كان كتاب الله هو الذي دعا هذه الفئة إلى الخروج، فكان يجب تحكيمه قبل خروج الجيوش وليس بعده...

ولذلك قُتل الرسول المسكين زياد بن الحصين، قتله قطريّ مولى الوليد...

وأخرج الوليد لواء مروان بن الحكم الذي كان رفعه في «الجابية» يوم استولى على الحكم من أنصار عبدالله بن الزبير سنة ٦٥ هـ، ونَصَبه الوليد على الحصن، ودارت مناوشات انتهت بهزيمة رجال عبد العزيز، ومقتل عدد منهم وتراجعهم، ونصب الوليد سريره فجلس عليه وقال: عليّ يتواثب الرجال وأنا أثب على الأسد، وأتخصّر الأفاعي...

وكان واضحاً أن القتال يميل لصالح الوليد، ثم حدثت المفاجأة. ذلك أن عبد العزيز بن الحجاج أدرك أنه لن يُفلح في القتال، إلاّ بالخديعة والمكر، وكان الوليد يعتمد على وصول ابن عمه العباس بن الوليد، كبير بني أميّة، لأن وقوفه معه يكفي لحسم القتال لصالحه، لأن الناس جميعاً كانوا يحترمونه ويقدرون دينه وأمانته.

وكان العباس قد أوشك على الوصول إلى البخراء، مع بنيه وأنصاره، عندما وجد (منصور بن جمهور) يعترضه، ويأمره تحت التهديد بالتوجّه إلىٰ عبد العزيز، شاء أم أبىٰ، فلم يجد بداً من الانصياع لهذه المفاجأة التي لم تكن في حسبانه ولا حسبان الوليد، وقد أحسن عبد العزيز استغلالها، ولو كان يزيد نفسه يقود القتال، لهزم بالتأكيد، لأنه لم يكن يجرؤ على رفع السيف في وجه أخيه الأكبر: العباس، وهو ما فَعَلَهُ عبد العزيز. . .

لقد انتهت المعركة يوم وقف العباس وبنوه في صفّ يزيد، ونادى منادي عبد العزيز: هذا العباس بن الوليد قد بايع لأمير المؤمنين يزيد، فقال العباس: إنّا لله خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان.

وعند ذلك، انفضّ الناس من حول الوليد، وبقي في

نفر يسير من أصحابه، فتراجع إلى الحصن وأغلق عليه الأبواب.

وأحاط عبد العزيز وأصحابه بالقصر، فناداهم الوليد: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟ فقال له يزيد بن عنبسة السكسكيّ: كلمني، فقال له: ألم أزد في أعطياتكم، ألم أرفع المؤن عنكم، ألم أعط فقراءكم ألم أخدم زمناكم؟.

فقال: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، ولكننا ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله.

فقال الوليد: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحلّ الله لي لسعة عما ذكرت.

ولو أمعنّا النظر في ردّ الوليد، لألفيناه يحمل في طياته معان كثيرة بالغة الأهمية.

لقد كان الوليد على أبواب القتل، وكان المنطق يقتضي أن يعلن عن توبته من ذنوبه التي اتهم بها، أو يعلن استعداده للتخلّي عن الحكم، لكنه لم يفعل ذلك، مع أنه كان يدرك تماماً أن الخطوة التالية هي القتل.

ومن جهةٍ أخرى، لا نجد في التهم الموجهة إليه تهمة

الكفر والزندقة وتمزيق المصحف، بل إن الأمر كان على الضدّ من ذلك، فقد دخل الوليد وقطع الحوار مع الثائرين، واستعدّ لمصيره، وفتح المصحف، ووضع سيفه إلى جنبه وهو يقول: يوم كيوم عثمان. وهذه هي الحقيقة: يوم كيوم عثمان.

لقد كان الناقمون على عثمان رضي الله عنه وعلى الوليد من نوعٍ واحدٍ، هو النوع الحاقد الذي لا يرضى عن القتل بديلاً، وكانت التهم التي لفقت لعثمان، تشبه التهم الملفقة للوليد، وكانت الطريقة واحدة في الحالين وهي أن الناقمين يعدّون التهمة، ثم يصدقونها، ثم يصدرون الحكم، ثم ينفذونه...

وكان يزيد بن الوليد، قد وعدهم بمنح مئة ألف درهم لمن يأتيه برأس الوليد، فازداد الناس حقدا على حقد، وهذا يعني أن الدعوة التي وجهت إلى الوليد للاحتكام إلى كتاب الله لم تكن إلا لذرّ الرماد في العيون، وكيف توجّه إلى زنديق كافر، لا يؤمن بيوم الحساب، كما زعم الطبري، كيف يمكن أن توجه له دعوة للاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟.

لقد أيقن الوليد أنه أمام جماعةٍ جاءت لقتله وإثارة الفتنة وحسب، وكان واضحاً أن ولاء يزيد للقدرية، أقوى

بكثير من ولائه لبني أمية، وكان ولاؤه لأخواله الفرس والترك والروم أقوى من ولائه للعروبة، ولو عاش طويلاً لرأينا ما يؤكد ذلك.

ونشر الوليدُ المصحفَ ـ الذي زعموا أنه مزَّقَهُ ـ وجلس ينتظر مصيره، في يوم عثمان...

وكما فعلوا مع عثمان، تسوروا الجدران وانقضوا على الوليد، وكان أولهم يزيد بن عنبسة السكسكي، فقال للوليد: نحِّ سيفك، فقال له: لو أردت السيف لكانت لي ولك حالةٌ غير هذه، وأخذ عنبسة بيد الوليد، وهو يريد حمايته، وهنا تكاثر الرجال، وكان منهم منصور بن جمهور والسريّ بن زياد، وعبد السلام اللخمي وغيرهم، فابتدره هؤلاء وضربوه على رأسه وكتفه! فخرَّ صريعاً يتضرج بدمه...

وأخذوا برجله وجرّوه ليأخذوه إلى الخارج، فصاحت بهم امرأةٌ فتركوه، وألقى أبو علاقة القضاعيّ بنفسه عليه، ليكون له شرف قطع رأسه وقبض المكافأة... وأخذوا رأس الوليد، وخاطوا الجروح التي بوجهه، وغسلوه وأرسلوه إلى يزيد مع روح بن مقبل...

وسلخ أبو الأسد، مولى خالد القسريّ، قطعةً من جلد الوليد لتكون ذكرى البطولة والشهامة. ثم جاء مولاه

الآخر «أبو محجن» فأدخل سيفه في دبر الوليد وأخرجه من حلقه، وقد تكررت هذه الفعلة نفسها مع الملك الشهير، الأشرف خليل، وقال:

لو شاهدوا حدّ سيفي حين أُدخِلُه
في أسْت الوليدِ لماتوا عنده كمدا

وتبارى الشعراء في ذلك الموقف البطوليّ يمجدون شجاعتهم التي زعموا أنها بدافع ديني، وأنفه لله ورسوله، وأظهروا حقيقتهم العصبية والعنصريَّة، فقال أبو محجن:

هل جاء من مُضرِ نفسٌ فتمنعه
والخيلُ تحت عجاجِ الموتِ تَطّردُ

وقالَ خلف بن خليفة:

تَرَكْنَ أميـر المؤمنين بخـالـدٍ
مكبّاً على خَيْشُومِـهِ غيـر ساجـدِ
فـإن تقطعـوا منا منـاط قلادةٍ
قـطعنا بـه منكم مناط قـلائدٍ
وإن سافر القسريّ سفرة هالك
فإنّ أبا العباس ليس بشاهـدٍ

وقال الأصبغ بن ذؤالة الكلبيّ:

من مبلغ قيساً وخندف كلهـا
وساداتهمْ من عبد شمسٍ وهاشم

قتلْنا «أميـر المؤمنين بخـالـدٍ
وبعنـا وليي عهده بـالـدراهم

وقال بشر بن هلباء العامري:
سنبكي خـالـداً بمـهنـداتٍ
ولا تـذهبْ صنـائعـهُ ضلالا

وهـذه الأشعار والأفعال تذكر بـأيـام العرب في الجاهلية. وقطعت كفّ الوليد أيضاً ووصلت إلى دمشق مساء ذلك اليوم الطويـل، يوم الخميس ٢٨ جمـادى الآخرة ـ ١٧ نيسان، وفي اليوم التالي، وصلت الرأسُ.

وكان أهل دمشق واجمون، لا يصدقون بما حدث، بل إنهم أرجفوا بموت عبد العزيز، وأسْقط في أيديهم لما دخل رأس الوليد وكفّه، وأيقنوا بموته.

وقدم الرأس على يزيد وهو يتغدى فقيل له: أبشر بقتل الفاسق فسجد ومن كان معه.

ولأول مرة في تاريخ الخلافة الإسلامية، أمر يزيد التقي الطاهر الورع بنصب الرأس في مسجد دمشق بعد الطواف به في شوارع المدينة وأزقّتها.

فاستنكر «يزيد بن فروة» ذلك وأعظمه وقال ليزيد: إنما تنصب رؤوس الخوارج، وهذا ابن عمك وخليفة، ولا

آمن إن نَصَبْتَهُ أن ترق له قلوب الناس، ويغضب له أهل بيته، فقال: والله لأنصبنّه على رمح، ثم قال لأبي فروة، انطلق فطفْ به في مدينـة دمشق، وأدخله دار أبيه، ففعل، فصاح الناس وأهل الدار، ونصب الرأس على مسجد دمشق، وبقي هناك شهراً كاملاً. . .

وبقيت آثار الدماء على جدار الجامع إلى أن قدم المأمون دمشق سنة ٢١٥ هـ، حيث أ‍ر بإزالتها[١].

لقد كان مقتل الوليد، على هذه الكيفية بداية جديدة لما يمكن أن نسميه «بأيام العرب في الإِسلام»، تلك الأيام التي دفع العرب وحدهم، الثمن فيها غالياً.

وكما سنرى، سالت الدماء أنهاراً في بلاد الشام بعد

(١) عن مقتل الوليد انظر:

ـ الطبري ٢٤٣/٧ وما بعد ـ الأغاني ٨٠/٧ وما بعد، تاريخ خليفة ٥٤٩/٢، العقد الفريد ٤٥٢/٥ ـ ٤٦٢، وابن كثير في البداية والنهاية أول الجزء العاشر، والكامل ٢٣٧/٥ وما بعـد والروض المعطار للحميري ص ٨٤، وبلغة الـظرفاء ص ٢٧ ـ وتاريخ اليعقوبي ٣٣٣/٢، ومآثر الإنافـة للقلقشندي ١٥٧/١، وفوات الوفيات ٢٥٣/٤، وسير أعـلام النبلاء للذهبي ٣٧٠/٥ وغيرها، وأكثر هذه المصادر تفصيلاً الطبري، وأكثرها دقة وقدماً، تاريخ خليفة بن خياط، ولمعرفة الجانب الشعري عند الوليـد، انظر: الأغاني الجزء السابع ١ ـ ٨٥.

مقتل الوليد، حتى جاء العباسيّون، فأبادوا بسيوف شعوبية فارسيّة مجوسية، أبادوا العنصر العربي من خراسان حتى الشام بدعوى تعقب الأمويين، وقد أدى ذلك كله إلى سيطرة الترك والفرس على مقدرات الإسلام والعرب طوال اثني عشر قرناً أو تزيد، وسوف نرى ذلك بوضوح تام فيما بعد، ولو تتبعنا الدافع الحقيقي وراء مقتل الوليد، فلن نجد للدافع، أو الوازع الديني أي أثر. . .

واعتقل وليّا عهد الوليد، الحكم وعثمان، الذين سنسمّيهما مع المؤرخين بـ «الحَمَلَيْن»، لأنهما ـ كما سنرى » ذُبحا في السجن بأيدي أنصار يزيد. . .

وصار يزيد في دمشق، كما قال الشاعر:

يـا لـك من قُبَّـرة بمعمر
خلا لكِ الجو فبيضي واصفُري
ونقّري ما شئتِ أن تنقري

وكان أول ما فعله، أن ارتجل خطبةً في جامع دمشق، تذكر بخطب عمر بن عبد العزيز، حتى إن الذين يسمعونها لا يسعُهم إلا أن يبكوا وينتحبوا، حزناً على يزيد، الخليفة الجديد المؤمن. .

وكان مما قال فيها:

«إني ما خرجت طلباً للملك، وما بي إطراء نفسي،

ولكني خرجت غضباً لله ورسوله ودينه، داعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيّه، لما هدمت معالم الهدىٰ وأطفىء نور أهل التقوى (يعني القدرية)».

ثم أعلن عن عزمه على نشر الحرية، وتعهّد بألا يفعل شيئاً ولا يبرم أمراً إلا بمشورتهم، وختم خطابه (التاريخيّ) بالقول:

فإن علمتم أحداً ممن يعرف بالصّلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم، فأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يُبايعه ويدخل في طريقته».

ونزل وطلب تجديد البيعة، فبايعه قيس بن هانىء العبسيّ، الذي ألقى بدوره كلمةً تبين مدى التعصّب المذهبي لأنصاره، وكان مما قال فيها:

يا أمير المؤمنين، اتق الله ودم على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحدٌ من أهل بيتك، وإن قالوا عمر بن عبد العزيز، فأنت أخذتها بحبل صالح، وإن عُمرَ أخذها بحبل سوء»[1].

---

(١) الطبري ٧/٢٦٩، وقد قتل قيس على مقالته تلك، التي ذمّ فيها جميع بني أمية، بما فيهم عمر، قتله مروان بن محمد وهو يصلي في الجامع الأمويّ يوم دخل مروان دمشق ظافراً. .

وانتـظر النـاسُ أن تعمهم الخيـرات وينتشـر الأمن والرخاء بعد مقتل «الخليفة الفاسق» ووصول «الخليفة المؤمن» فكان أول ما فعله معهم إنقاصه أعطياتهم حتّى سُمّي بيزيد الناقص، ولم يشعر الناس بأي تحسّن في عهد هذه الخليفة المؤمن ومرت الشهور، وازداد الظلم، حتى دخل عليه خالد بن زياد وقال له «يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لإقامة كتاب الله، وعمالك يغشمـون ويظلمون» قال لا أجد أعواناً غيرهم وإني لأُبغضهم، فقال له: يا أمير المؤمنين ولِّ أهل البيوتات، وضم إلى كل عاملٍ رجالاً من أهل الخير، فقال أفعل(١).

وظنّ يزيد أن حركته، صارت شرعية، وأنّ الأمور استتبت، ولكنّه فوجىء بالثورات تقوم ضدّه، انتقـاماً لمقتل الوليد. . .

وكانت أولى هذه الثورات، ثورة أهل حمص.

وكان عامل الوليد على حمص «مروان بن عبدالله بن عبد الملك» وقد وصف بأنه «كان من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً» فلما قتل الوليد، ثار أهـل حمص، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد، وسألوا عن كيفية قتله، فقيل لهم إن انحياز العباس هو الذي كان

---

(١) الطبري ٧/٢٩٣.

سبب الهزيمة، فوثبوا على داره وهدموها، وسلبوا حرمه، وأخذوا بنيه فحبسوهم وطلبوهُ، فهرب إلى يزيد.

وكاتبوا الجند، ودعوا إلى الطلب بدم يزيد، وتعاهدوا على ألا يدخلوا في طاعة يزيد، وبايعوا لوليي العهد «الحكم وعثمان» وأمّروا عليهم معاوية بن الحصين، وكتبوا إلى مروان عاملهم فقال:

هذا كتابٌ حضره من اللَّه حاضر، وتابعهم على ما أرادوا، وخطب فيهم فقال: «إنكم خرجتم لجهاد عدوكم، والطلب بدم خليفتكم وخرجتم مخرجاً أرجو أن يعظم الله به أجركم ويحسن عليه ثوابكم»[1].

ثم ثار أهل فلسطين والأردن للسبب نفسه، ورفضوا الاعتراف بيزيد، وطالبوا بدم الوليد ووثب أهل مصر والمدينة بعمّالهم، وعمّت الفوضى أنحاء الدولة الأموية، بين راغب في الثأر، وطامع في النهب...

وأمضى يزيد شهوره القليلة في ملاحقة الخارجين عليه وتسيير الحملات ضدهم.

وليس قصدنا تتبع هذه الثورات، وإنما أوردنا نماذج لبيان موقف الناس من الوليد وقتلته، وذلك لتقديم

---

(١) الطبري ٧/٢٦٤.

الصورة الحقيقية للوليد، وليزيد، ومعرفة الحق في أي جانب كان.

وقد كانت نهاية القتله سريعة وعنيفة، وذلك أنه لم يكن يدور في خلد يزيد ولا أنصاره من القحطانية والقدريَّة أن نهايتهم ستكون سريعة ومفجعة بهذا الشكل.

وكان أول من مات منهم، زعيمهم وكبيرهم: يزيد بن الوليد، الذي مات في شهر ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ، أي بعد أقل من ستة شهور من حكمه، وهي نفس المدة التي قضاها من بعده (المنتصر) قاتل أبيه المتوكّل، وكان في الثلاثينات... وكان لقبه الشاكر لله، وكان آخر ما قاله «وا حسرتاه، وا أسفاه» ودفن بمقبرة الباب الصغير...

وكما أنه لم يهنأ في خلافته، فإنه لم يهنأ في قبره أيضاً إذ أخرجه مروان بن الحكم وضربه وصلبه[1].....

ولو أردنا تقييم حركته ونتائجها، فإننا نقول إنها كانت حركة طائشة فاشلة مدمرة لم يستفد أحد منها، وأسوأ الأعمال ما يسبب الضرر للجميع بدون استثناء..

وكان، كما ذكرنا قد عهد لأخيه إبراهيم بالأمر من بعده، ولكنّ ذلك لم يتم، وسارت الرياح بعكس ما

---

(١) انظر ترجمة يزيد في الأعلام، وفي سير أعلام النبلاء ٥/٣٧٤.

يشتهي أنصار يزيد.

ذلك أن مروان بن محمّد، كان بأرمينية يوم قتل الوليد، وما كاد يتحرك نحو الجزيرة حتى علم بوفاة يزيد، فجمعَ المقاتلين من ربيعة وقيس واجتاح الشّمال كله، وتوجّه نحو دمشق بعد أن انضم إليه أهل حمص، والتقى مع قوات إبراهيم بن يزيد في «عين الجرّ» وكان عليهم سليمان بن هشام، وعبد العزيز بن الحجاج، وانتصر مروان وأخذ البيعة للغلامين، وتوجه إلى دمشق[1]...

وهرب سليمان منها، واجتمع عبد العزيز بمن بقي من رجاله، وهم الخليفة إبراهيم، ويزيد بن خالد القسري، وأبو علاقة السكسكي، والأصبغ بن نؤالة الكلبي وغيرهم.

وقد قرر هؤلاء، قطع الطريق على مروان وقتل الغلامين، وقتل يوسف بن عمر أيضاً، وقام «أبو الأسد» مولى القسريّ فشدخ الغلامين بالعُمُد حتى أتى عليهما... وهذا يدل على طبيعة الثائرين...

وانطلق عبد العزيز ورجاله إلى باب الجابية ومعه

---

(١) تاريخ خليفة ٥٦٥/٢، والطبري ٣٠١/٧.

الأموال محمولة على العربات، واستنفر الناس للقتال معه، فلم يلتفت إليه أحد، ودبَّت الفوضى في المدينة فكانت أياماً رهيبةً. . .

وثار موالي الخليفة الشهيد، وتوجهوا إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، واحتزّوا رأسه، وأتوا به إلى أبي محمد السفياني، وكان يخطب على منبر دمشق، ووضعوه أمامه على المنبر، فخطبهم وبايع لمروان، وشتم يزيد وإبراهيم ثم انطلق أهل دمشق إلىٰ أنصار يزيد يقتلونهم وينهبونهم، ودخل مروان دمشق وبايعه الناس، وأمر بالغلامين وبيوسف بن عمر فدفنوا، وأنشده السفياني شعراً، زعم أنه للحكم بن الوليد، أحد الغلامين جاء فيه:

ألا من مبلغ مـروان عنّي
وعمي الغَمـرَ طال بـذا حنينا
بأني قد ظلمت وصـار قومي
على قتـل الـوليـد متابعينـا
أيذهب كلبُهم بـدمي ومـالي
فـلا غثـاً أصبتُ ولا سمينـا
ألم يحزنك قتـلُ فتى قريشٍ
وشـقّهـم عِصـيَّ المسْلمينـا

وساد الناقصُ القدريُّ فينا
وألقى الحرب بين بني أبينا
ولو شهدتْ ليوث بني تميم
لما بعنا تراث بني أبينا
فإن أهلِكْ أنا ووليُّ عهدي
فمروانٌ أميرُ المؤمنينا(١)

وانقضت فتنة الشهور الستة، ولكن آثارها بقيت، تذكر الناس بقابيل وهابيل...

وفي الختام، لا بد من تقييم شامل للوليد الخليفة. لقد ظلم الوليد أدبُه، وظلمته الخلافةُ وظلمَها، ذلك أنه خلال عشرين عاماً، كان بعيداً عنها وعن شؤون الحكم ومسؤولياته عكف على قرض الشعر والغناء واللهو، حتى أصبحَ يعدّ من الشعراء...

وما إن استوى على مملكة الشعر، حتى دعوه إلى مقعد الخلافة، فلم يقو على الانسلاخ من تراث عشرين عاماً، وحكم البلاد بعقلية الشاعر والخليفة معاً...

لقد جنتْ على الوليد شاعريته أكثر مما جنت عليه أفعاله، إذ استطاع المغرضون أن ينسبوا إليه شيئاً كثيراً من

---

(١) الطبري ٣١٢/٧ - وتاريخ خليفة ٥٦٥/٢.

الشعر، ولقد جرى في قصور من جاء بعده من الخلفاء، أكثر بكثير مما جرى في قصوره، ولم يؤبه لذلك، وهكذا جنت عليه العبقرية بحيث شاع شعره بين الناس منحوله ومصدوقه يحوك الناس حوله القصص، ويتأولون الحديث، فكان منه هذا الكمّ الهائل المعقول وغير المعقول[١].

ولو كان الشعر لغير الوليد لاستعذبناه، ومدحنا قائله، ولكن بما أنه نسب إليه، فالأمر جدّ خطير. . .

ولو أنّه مرّ مستخفياً، لخفي على الناس أمره، ولكان حديث الخاصّة يتهامسون به في مجالسهم، ولا يغلب الملوك إلا حين تصبح سيرتهم على ألسنة العامّة الذين تروق لهمُ المبالغات، وتعجبهم الأساطير، فنسجوا منها الشيء الكثير، ونسبوه إلى الوليد.

وإنه من خلال عرضنا لسيرة الوليد نُكرر القول إنه لم يكن أحسن الخلفاء، ولا أسوأهم، ولكنه وحده الذي صار هدفاً للحملات، لأنه فتح باب الشرّ على نفسه بيديه، لقد كان الوليد خليفة طروباً يحب الخمرة والغزل، لكنه لم يكن فاسقاً أو زنديقاً أو كافراً أو ماجناً، لقد كان يعظم شعائر الله، ويلتزم بها، ويؤدي الصلوات

(١) الوليد بن يزيد، إبراهيم «الإبياري، مصر ١٩٥٦، ص ٧٨.

في أوقـاتها، وقـد حجّ فحسن حجـه، وقدم القـرى للحجاج، وعندما حكم زاد في الأعطيات، واختص أهل الشام بزيادات خاصّة، فنقم عليه من نقم، لقد كـان له من الأقوال والأفعال ما يرفعه كثيراً عن المستوى غير اللائق الذي وضعه فيه الحاقدون، وتابعهم الغوغاء والعامة، لقد أراد هؤلاء تشويه صورة الأمويين، قادة الفتوح، عن طريق الإساءة للوليد، ولكنّ الحقيقة تبقى دائماً ظاهرة لمن ينشدها.

وآخر ما نقوله عن الوليد، ما قاله هارون الرشيد لأحد أبناء الغمر بن يزيد، أخي الوليد:

«رحم الله عمك، ولعن يزيد الناقص وقتلة عمك جميعاً، فإنهم قتلوا خليفة مُجمعاً عليه»[1].

* * *
*

(١) الأغاني ٨٢/٧.

الفهرس

المحتوى	الصفحة
مقدمة	5
الوليد بن يزيد	10
من الوليد؟	16
نسبه	16
بين الوليد وهشام بن عبد الملك (عمه)	17
تأثير هشام في الوليد	18
صفات هشام بن عبد الملك	19
طلب هشام من الوليد خلع نفسه	25
الوليد أقرب إلى الشعراء منه إلى الخلفاء	26
الوليد الخليفة	28
رواية موضوعة على لسان الوليد وبيان وضعها	31
الوليد اصبح خليفة سنة 125 هـ - 743م	32
عدم إهمال الوليد للجهاد	35
نسبة أبيات فاحشة للوليد وبيان كذب ذلك	37
مساعدي الوليد في الحكم	37
وفود المهنئين إلى الوليد	39
أول أعماله	41
تصفية خصومه	42
الوليد وزيد بن علي بن الحسين	44
ثورة الخوارج على الأمويين	48
يستحيل أن يوجد حاكم يرضى به الناس جميعاً	51
قاصمة الظهر التي أطاحت بالوليد	52
الوليد الإنسان	55
الروايات في الطعن بمروءة الوليد ودينه وإسلامه	55
الردود على الإتهامات	65
نهاية الوليد	86
لماذا قتل الوليد؟	86
كيف قتل الوليد؟	102
العباسيون جاءوا بسيوف شعوبية فارسية مجوسية أبادوا العنصر العربي من خراسان	119
الخاتمة	126

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي